

ابن خزم الأندلسي

عصره ومنهجه وفكره التربوي

الدكتور حسان محمد حسان

كلية التربية — جامعة عين شمس

ملزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جوارح مسكن / القاهرة
ص ١٣٠٠ - ٧٦٠٥٩٣

فان يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل ان انزل ويـدمن فى قبرى

ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قبل الدخول في التفاصيل تحسن الإشارة الى نقطتين :

النقطة الأولى : أن هذه الدراسة ليست في الفقه ، بل في الفكر التربوي لأحد أئمة الفقه الظاهري •

والنقطة الثانية : أن هذه الدراسة لا تتبنى وجهة نظر الفقه الظاهري ، بل لا تناقش صحة قضاياها ، من هنا تبدأ وتنتهي تاركة الحكم على المذهب للمتخصصين من المؤيدين والمعارضين •

خالفه وأصوله ، والمذهب وخصومه يحتاج تكويننا علميا خاصا لم أعد له ، أو أتدرب عليه • لهذا ليس لي الا وقوف ، عند شطآن الفقه ، أما التعمق فيه فله رجاله الجديرون به ، وثقافته القادرون عليه •

وموقفى هذا ليس هروبا أو تراجعاً بقدر ما هو موقف ضرورى تمليه مبررات تربوية ، وأخرى شخصية •

من هذه المبررات التربوية أن المشتغل بالتربية ليس في موقف المصحح لأصولها ، بل يقتصر دوره على تفسير الفكر التربوي ، وتحليل التطبيق العلمى ، وتوضيح ونقد العلاقة بينهما •

وعلى ذلك فليس من حقه — ولا من مهمته — التأكد من صحة أصول الاقتصاد ، أو الفقه ، أو مسلمات علم النفس والادارة ، أو أسانيد الحديث والتاريخ ، أو نظريات الجغرافيا والاحصاء ، فذلك — وغيره — من وظيفة المختصين ، أما التربوي فعليه التركيز على المضمون التربوي والتطبيق التعليمى •

لهذا فمن نافلة القول تكرار أن الدارس لتاريخ التربية — مثلا — ليس من مهمته إعادة فحص الوثائق ونقدها نقدا خارجيا وداخليا ، بل عليه الانطلاق مما أكده أهل التاريخ ، ثم التركيز على التفاعل بين الظواهر التاريخية وفلسفة التعليم ونظامه •

أما المبررات الشخصية فيمكن بلورتها في مبررين :

عدم تخصصى فى الدراسات الفقهية كما سبقت الإشارة •

وعدم تخصصى فى الدراسات الأندلسية •

وإذا بدأنا بالنقطة الأولى فللفقه رجاله وثقافته ، وأيضا مدرسه ودارسه ، وليس لى ادعاء الفقه فى أصول الفقه !! لهذا تمنيت أن تعالج بعض قضايا التربية الإسلامية عن طريق متخصصين فى العلوم الشرعية مما يتيح لهم التقدم فى الدراسة بقاعدة أعرض وعمق أوفر ، وثقة أكبر ونتائج أفضل •

والذى يؤكد وجهة نظرى هذه أن معظم كتابات التربويين فى التربية الإسلامية من قبيل الافتتاحيات والمقدمات لأسباب عدة منها عدم تخصصهم الأصلى فى العلوم الشرعية ، لاسيما الفقه •

وهذا العيب له أمثله فى فروع التربية الأخرى ، لهذا سبق « لجيمس كونانت » سنة ١٩٦٣ أن أبدى تشككه فى أساتذة « الاجتماع التربوى » الذين لم يتخرجوا فى أقسام الاجتماع • ومن ثم طالب بأن يتولى تدريس هذه المادة أساتذة الاجتماع بدلا من التربويين غير المتخصصين الذين اقتحموا الميدان بجرأة ، ومن غير اعداد كاف •

وعن نفس الفكرة كتب « أولف بانكس » عام ١٩٧٦ مؤكدا أن من أسباب ضعف ميدان « اجتماعيات التربية » ، وقلة استخدام مناهج متطورة فيه ، أن معظم كتابه ليسوا من أساتذة الاجتماع الأكفاء المدرسين •

وما ينطبق على اجتماعيات التربية ينطبق على اقتصادياتها ،
من هنا جاءت معظم كتاباتها — من غير المتبحرين في الاقتصاد — من
قبيل التمهيد والتعريف بدون استخدام مناهج معقدة وأساليب متطورة .

أما فيما يتعلق بعدم تخصصي في الدراسات الأندلسية فالمؤكد
أن لها نجوما وفرسانا ، ثقافة وأعلاما تخصصوا في الأندلس تاريخا
وحضارة ، وسياسة واقتصادا ، واجتماعا وثقافة ، وأدبا وعمارة .
ومثل هذا التخصص يقتضى طول عشرة وألفه ، وعمق معاشية
ومؤانسة ، واجادة لغات قديمة وحديثة مما ييسر الدراسة ويعمق
مصادرها . وكل ذلك أنا بنغيد عنه ، ومن ثم ضعيف الصلة به .

ويزيد الطين بلة أن معلومات المثقفين المشارقة عن الأندلس قليلة
محدودة ، وربما متناقضة متضاربة . من هنا يأتى احتمال بسقوطهم
في أخطاء فادحة تتصل بثقافة الأندلس المعنوية والمادية . من هنا
جاء نقد الدكتور « الطاهر مكى » الأستاذ مرموق في الفلسفة ألف كتابا
عن « ابن حزم » فيه أخطاء فادحة تتصل بجغرافية الأندلس !!

بطبيعة الحال ذلك لا يعنى أن الأندلس سحر مبهم ، أو كتاب
مغلق ، لكنها تحتاج تدريبا ومعاناة ، واحاطة ودراية ، لهذا جاءت
دراستى هذه تمثل جهدا مرتادا لحقل جديد بدون دربة سابقة ،
أو مهارة هائقة .

وهذه الدراسة التى بين يديك الآن تغطى ميدانا جديدا فى فكر
ابن حزم . فالدراسات السابقة تناولته فقيها وكاتب سيرة ، ومؤرخا
وعالم أديان ، وأديبا وشاعرا ، ولم تعالجه من منظور تربوى .

بطبيعة الحال لا يعنى هذا أن ابن حزم كان فيلسوف تربية
أو معلما محترفا — مثل ابن سحنون والقباسى — بل يعنى أن فكره
الموسوعى وانتاجه الغزير به كثير من الإشارات والتنبهات التى
تستحق التنظير والتأصيل التربوى .

وما ينطبق على ابن حزم يمتد الى غيره . .

فحضارتنا الاسلامية عامرة بمفكرين لم يتخصصوا في التدريس والتعليم الا أن لهم اشارات وتنبيهات في الانسان والمعرفة ، والمعلم والمتعلم ، والدرس والتحصيل . . . الخ وللأسف لم تسلط عليهم الأضواء ، ولا على المعلمين المحترفين أصحاب الكتب والرسائل التربوية .

وهذه قضية غاية في الأهمية . .

فلقد درجنا في معظم كليات التربية العربية على تدريس تاريخ التربية بحيث يحتل اليونان ثم أعلام التربية الغربية مركز الاهتمام وموضع الصدارة . . وعندما تعالج العصور الوسطى الاسلامية يمر عليها مرور الكرام ، وربما تحذف من امتحان الطلاب !! والأخطر من ذلك أن معالجتها غالبا ما تكون من زاوية ما كتبه المؤرخون الأجانب لهذا يحتل الغزالي وابن سينا والخوان الصفا والفارابي معظم الاهتمام والجهد .

ومع عدم الاقلال من قيمة هؤلاء الاعلام الا أن بعضهم ليس التعبير الوحيد عن تربية الحضارة الاسلامية ، وأحيانا ليس الممثل الشرعى لها !!

ولكن ما السبب في كثرة الكتابة التربوية عن هؤلاء الاعلام ؟

المؤكد أن الأسباب كثيرة من بينها أن عددا وافرا من كتبهم ما زال موجودا ومطبوعا ، كما أنهم اشتهروا في الفلسفة الاسلامية ، ومن ثم ذاع صيتهم في التربية ، وأخيرا لأن المستشرقين ركزوا عليهم وأطنبوا فيهم . .

اذن يمكن القول — بشيء من التحفظ — أن ما درسه المستشرقون ذاع وانتشر ، وما أهملوا مات واندثر !!

وإذا كان الفرض السابق — رغم غلوه — صحيحا ، فإن ظروف اليوم غير ظروف الأمس .

فعندما نشأت الدراسات الاستشرافية كانت جامعات البلاد الإسلامية معدومة أو معدودة ، وبإمكانات ودرايات محدودة .

أما اليوم فبعد رسوخ عشرات الجامعات ومراكز البحوث في البلاد الإسلامية فإن النظرة لابد أن تتغير ، وفي ذلك يقول الدكتور « شاكِر مصطفى » :

« لقد انتهى العهد الذى كان يقول فيه المستشرقون شيئا غيبيتهم المشرقيون آمين ... » .

من هنا يحق لى أن أسأل :

لماذا الاهتمام بابن سينا واخوان الصفا ؟

ولماذا التركيز على السهروردي المقتول وابن عربى ؟

هل لأن المستشرقين قتلوهم بحثا ونشرا ، أم لأنهم نجوم زاهرة لا يمكن تجاوزهم ؟

وهل كل من نبغ فى « الفلسفة الإسلامية » لابد أن ينبغ فى « التربية الإسلامية » ؟

وهل الشارح لأرسطو ، أو المعلق على أفلاطون يعبر عن تجربة الاسلام والمسلمين التربوية ؟

وهل جامعاتنا ما زالت تابعة لنيكلسون وماسنينون ، أم تكونت لدينا البصيرة الخاصة والرؤية المتميزة ؟

وهل فكرية أحمد لطفى السيد وطه حسين وغيرهما من جيل الرواد ما زالت تحكمنا حتى الآن ؟

أسئلة كثيرة أجاباتها ما زالت تتلصق لأن أساتذة يحتلون مراكز
الصدارة بحوثهم غارقة — أو غارقة — من بحوث أجنبييه
د يستطيعون منها فكاكاً ، ولا يوجهون لها نقداً * ومن تم يحصرون
ملابهم في دائرة ضيقة يختلط فيها التراب بالنبر ، والمغث بالثمين *
ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان عملة جديدة نزلت أسواق
الدراسات الإسلامية :

فعدد من أصحاب الاتجاه الاشتراكي يخوضون بحار الفكر
الاسلامي مكتشفين لموارده ، راصدين لنجومه بالمنهج الجدلي *

ورغم أن أصحاب هذا الاتجاه الأخير قليلو العدد الا أنهم
جماعات جيدة التنظيم مكثفة الجهد ، عالية الصوت واضحة النبرة ،
لا تكل عن التكرار والترديد ، والنشر والتوزيع *

لهذا السبب توالى الكتب والدراسات في العشرين عاما الماضية
تحلل الحضارة الاسلامية من منظور ماركسي أو اشتراكي يلوى
— أحيانا — ذراع الحقائق ، ويفرض تفسيرات لا تتماشى مع طبيعة
الحضارة الاسلامية ولا تفسر تطورها *

بطبيعة الحال لم تقف الفكرية الاسلامية مكتوفة الأيدي . بل
تعمسكت داخل الجماعات والجامعات الاسلامية الا أنه لأسباب كثيرة
فرض عليها الحصار ، وألقيت في غياهب السجون ، أو أجبرت على
الصمت والسكون ! !

والملفت للنظر أنه ما من مفكر عربي ، فرنسي المنهج أو انجليزي
الاتجاه ، أودع غياهب السجون في حين فاقت بالمفكرين الاسلاميين
وبذلك نضع البضاعة المستوردة موضع الصدارة والتكريم ، بينما الفكر
الاسلامي في دائرة الحصار والتجريم ! !

مجمل القول أن جانباً من فكرنا التربوي لم يدرس دراسة كافية
لأسيما الفكر التربوي عند الفقهاء والصوفية •

بطبيعة الحال هناك رسائل ودراسات تناولت عدداً من أعلام
فكرنا التربوي ، كما أن بعضها ركز على المدارس والاتجاهات ، وبعضها
الأخر ركز على دراسة قرن أو مرحلة تاريخية ، كما أن المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم تجرى عن طريق إدارة البحوث التربوية
دراسة موسعة بعنوان « الفكر التربوي العربي الإسلامي » • ويشترك
في أعداد هذه الدراسة عدد كبير من المفكرين والأساتذة العرب
المرموقين إلا أن ما ألفت إليه الانتباه أنه لا بد من إعادة دراسة تاريخنا
التربوي الثقافي وصولاً لجذور تاهت ، واكتشافاً لأصول فقدت شريطة
ألا يتم ذلك بانفعال ومبالغة ، أو مغالاة وتجاوز والا سقطنا أسرى
التمركز حول الذات والفرجسية الثقافية •

ومن المؤكد أنه إذا كانت التبعة الفكرية مرفوضة ، فإن الفرجسية
الثقافية أيضاً مرفوضة فكل منهما يعرقل مسيرة مجتمعاتنا العربية
وبحثها عن الهوية الثقافية •

ومن نافلة القول أن دراسة جذورنا وأصولنا لا تعنى التقليد
والتكرار ، ولا تعنى إهمال الحاضر والمستقبل بل المقصود الكشف
عن المنابع والملاحم المميزة والتمسك بها دعماً لهويتنا الثقافية ، وعصرية
اليابان — مثلاً — لم تكن أعدام الثقافة اليابانية أو طرحها في البحر •

والدراسة التي بين يديك تقع في ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

يعالج ابن حزم وعصره مركزاً على أنه كان أندلساً مصغراً ،
والأندلس كانت ابن حزم مكبراً !! ثم يعالج بقية الفصيل أسرته ومولده
نشأته وثقافته ، إنتاجه وجهوده ، وانحساره ووفاته •

الفصل الثانى :

ويركز على المنهج الظاهرى بصفة عامة ، والحزمى بصفة خاصة
متناولا اختلافه عن منهج المذاهب الأربعة ، وتراجع به بالمشرق ، ثم تألقه
بالمغرب والأندلس ، وصراع السلطة مع الفقهاء ، واختلاف ابن حزم
عن شيخه أبى داود ، وأخيرا الظاهرية بعد ابن حزم .

الفصل الثالث :

ويركز على الفكر التربوى والنفسى لابن حزم متناولا جهود
التعليم فى الأندلس ورأيه فيها ، وصلة هذا الفكر ببيئته الاجتماعية
والمادية ، وأهداف العلوم عنده ، ومراحل التعليم ، وتصنيف العلوم .

هذه الملامح العامة للدراسة قد يخفف من هفواتها وهفواتها
أنها تركز على الفكر التربوى لفكر متعدد المواهب موسوعى الاتجاه
الا أنه لم يتخصص فى التعليم والتربية ، ومن ثم كان على أن أبحث
عن ملامح فكره التربوى وسط انتاج ضخمة ومؤلفات متعددة .

ومثل هذه الدراسة — مهما كان فيها من جهد — تنطبق عليها
عبارة العماد الأصفهاني الشهيرة :

« أنى رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا فى يومه الا قال فى غده :
لو غير هذا كله لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم
هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر .
ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر ... » .

وفى ختام هذه المقدمة لابد من تقديم الشكر للزميل الدكتور
محمد خليفة الأستاذ المساعد بآداب القاهرة الذى تحاورت معه
كثيرا حول ابن حزم ، وللزميل الأستاذ مصطفى رسلان المدرس المساعد
بتربية عين شمس الذى راجع مسودة الكتاب فأنقذه من العثرات
الأسلوبية والنحوية .

والله من وراء القصد والسبيل ، انه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

ابن حزم وعصره

« ما من مدبر مدينة أو حصن في أندلسنا هذه ، أولها عن
آخرها ، الا محارب الله ورسوله وساع في الأرض بفساد .. » *

ابن حزم

المسطران الواردان في الصفحة السابقة يوضحان علاقة ابن حزم بعصره ، وأندلسه ، وما فيها من التزام وخروج ، وقبول ورفض ، وارتباط وانتقاد .

وهذه سمة المفكر الملتزم .

فالالتزام لا يعنى الخضوع الأعمى لتقاليد المجتمع وأعرافه ، بل التمثل الواضح لها ، والانتقاد العلمى لمثالبها وعيوبها ، والخروج على تقاليدھا الظالمة ، والا ما أصبح هناك فارق بين المفكر والطالب ، والمحرك والمتحرك .

والفصل الحالى يعالج الصلة بين ابن حزم ومجتمعه وما فيها من مسايرة ومغايرة ، ومطاوعة ومقاومة . ولم يكن ابن حزم مفكرا تقليديا، بل له خصوصيته المميزة ، ومنهجه المتفرد . وهنا جاءت نسبيته المارقة والاختلاف ، والتباين والمواجهة ، والطرْد والنفى .

ولم تكن هذه سمة مميزة لابن حزم بمفرده .

ففى تاريخ فقھنا الاسلامى تعرض جميع الأئمة الكبار للفتن والظلم ، والسجن والحبس ، بل ان بعضهم مات متأثرا بسياسات الظلم ، وحسرة الحبس ، وما لان منهم أحد ، ولا تراجع منهم فرد .
والفصل الحالى يكشف عن طبيعة العلاقة بين ابن حزم والأندلس ، وما كان يرجوه من أمانى ورغبات ، تطلعات وطموحات .

ومثل هذا الطموح والتطلع أثار عليه سخط الساخطين ، وحقد الحاقدين ليس فقط نتيجة أحكامه الفقهية المتصلة بالعبادات ، بل أيضا لأحكامه المتصلة بالمعاملات فخلد كانت له آراء غاية فى الغرابة ، وقمة فى التطرف .

من ذلك مثلا أنه تمسك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المروى عن أبى هريرة :

« من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليمنحها أخاه . فان أبى فليمسك أرضه » .

وتمسك أيضا بما رواه ابن خديج :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كراء الأرض .. » .
وبذلك رخص ابن حزم ايجار الأرض الزراعية بأية صورة من الصور ،
وأصر على أن يزرعها صاحبها بنفسه ، ولا يشرك فيها غيره بالمؤاجرة .
« ولا يجوز كراء الأرض بشيء أصلا لا بدنانير ولا بدراهم ، ولا بعوض
ولا بطعام مسمى ، ولا بشيء أصلا .. » ^(١) والشئ الوحيد الذى أباحه
ابن حزم هو ما فهمه من الحديثين الشريفين السابقين ، ولهذا قال :
« لا يجوز فى الأرض الا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها
أو الممارسة فقط » .

بهذه القطعية والحدية عاش ومات ابن حزم لا يزجو رضى فقيه
أو حاكم ، أو وزير وأمير مما أثار عليه حفيظة الأمراء والبنىاء ..

فكيف يسمحون له بترويج أفكار تصادر منبعا هاما من منابع
ثروتهم ؟

وكيف يسمح له بنشر مذهب يحرم مصدرا هاما من مصادر
سلطوتهم ؟

لهذا كان لابد من تحريق كتبه وصرف الناس عنه ، واتهامه بالخروج
والمروق ، ان لم يكن الالحاد والتجديف .

ومن المؤكد أن ابن حزم قد جانبه الصواب فى كثير من تفسيراته

(١) ابن حزم المولى — الجزء الثامن . ص ٢١١ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٩٠ .

وتحليلاته^(١) ، ففقهاء المسلمين لهم وجهة نظر واضحة وثابتة في جواز ايجار الأرض ، وهم في ذلك يستندون الى أسس شرعية واضحة لا عوج فيها ولا امت ، ولا تحريف فيها ولا تصحيف^(٢) . الا أن ابن حزم كان يملك من الجرأة والقدررة على المواجهة الشيء الكثير مما يفجر قضايا جد خلافية أثارت عليه غضب الأثرياء وسخط الفقهاء .

بطبيعة الحال هذه الدراسة ليست دفاعا عن ابن حزم ، وفي الوقت نفسه ليست وثيقة تضعه في قفص الاتهام ، بل محاولة للتعرف والاستكشاف ، والرصد والتحليل ، وكاتب هذه السطور لا يتبنى وجهة نظر ابن حزم ، انما يحاول تفسير أسباب الهجوم عليه ومحاولة البطش به حيا ومثا . ولم يكن الهجوم نتيجة اختلاف في أحكام العبادات ، بل أيضا الأحكام المعاملات وما فيها من اختلاف عن جمهور العلماء ، ونظم المجتمع .

ومن الأمور التي اشتهر ابن حزم بالاختلاف فيها عن سائر أئمة السنة قوله بأن العبد له الحق في الزواج من أربع نساء مثله مثل الحر ، بل أيضا له الحق في التسرى .

ولابن حزم وجهة نظر في ذلك . .

هاجماع الصحابة لم يقع فيما يتعلق بزواج العبد من زوجتين فقط وبعدم وجود حق له في التسرى . والأهم من ذلك أن نصوص القرآن

(١) وفي ذلك يقوم الشيخ طاهر الجزائري : « قد علم من وقف على كثير من مؤلفات ابن حزم أنه يجنح في أكثر المواضع الى مخالفة الجمهور ، وهو في أكثر ما خالفهم فيه أقرب الى الخطأ منه الى الصواب » .
نقلا عن : جودة هلال ومحمد صبح . قرطبة في التاريخ الاسلامي .
المكتبة الثقافية . العدد ٧٢ — نوفمبر ١٩٦٢ — ص ١٥٥ .
(٢) راجع الرد على ابن حزم في هذه النقطة :
عبد الهادي النجار — الاسلام والاقتصاد — سلسلة عالم المعرفة —
الكويت — عدد ٦٣ مارس ١٩٨٣ — ص ٨٢ — ٨٤ .

الكريم تقول مباشرة « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » (١) .

إذا كان كل ذلك كذلك فمن أين يأتي التقييد والمنع ؟ ومن أين يأتي التخصيص والتفريق . . . (٢) .

لابد أن الموقف به تأويل وقياس ، وهذا ما رفضه ابن حزم منهجيا وفقهيا . فإذا كانت الآية واضحة لا لبس فيها ولا غموض فما مجال التفسير والتأويل ، أو القياس والترجيح ؟

وهكذا يختلف ابن حزم بجرأة يحسد عليها ، وثقة مبالغ فيها ، أو ثبته المشكلات وخاضت به المزالق . ولم يكن مهما عنده الاختلاف مع الأئمة ، انما الرجوع إلى الآية الكريمة والحديث الشريف من غير تأويل مسبق وقياس مخرج . وإذا لم يكن الصحابة قد اتفقوا ، ربما على حكم ، فليس هناك ما يلزم باتباع واحد منهم دون الآخر . فالاجماع لابد أن ينعقد باجماع ، فإذا لم يتوافر ذلك فلا بأس من الاختلاف والاجتهاد ، بل لابد من ضرورة الاجتهاد .

وهكذا فتح ابن حزم باب الاجتهاد على مدراعيه ، ولا شك أنه كان ثورة فكرية تحمل مسئولياتها ، وقاسى من ويلاتها حيا وميتا ، في عصره وعصرنا . فحتى الآن ما زال البعض ينفذ اليه باعتباره خارجا على اجماع أهل السنة ، ومن ثم لا يستحق الا كل جمود ونكران ، وربما كل عقاب وتنكيل . وفي وصف هذه الحالة يقول المؤرخ ابن خلدون :

« كان ابن حزم يصك معارضه صك الجندل ، وينشقه انشاق الخردل ، تنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب ، حتى استهدف إلى فقهاء وقته فمالوا اليه بغضه ورد أقواله ، فأجمعوا على تضليله وشنعوا

(١) سورة النساء ، آية (٣) .

(٢) المرجع السابق . ص ١٩٠ .

عليه وحذروا سلاطينهم من غتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والأخذ عنه . وحلفق الملوك يقصونه عن قريبهم ، ويسيرونه عن بلادهم الى أن انتهوا به فقطع أثره بقربة بلده من بادية لبة وبها توفي رحمه الله » (١) .

وهذا الفصل يعالج محاور ، أولها التفاعل بين المفكر والمجتمع مؤكدا على أن ابن حزم صورة من أندلسه . ثم ينتقل المحور الثانى لمناقشة أسرته ومولده وما خلفاه فيه من آثار بيولوجية واجتماعية انعكست على سلوكه وفكره ، وانتاجه وجهده . بعد ذلك يركز المحور الثالث على نشأته وثقافته ، ويغطي المحور الرابع انتاجه وجهوده . واخيرا يركز المحور الخامس على انحصاره ووفاته .

وقبل الدخول فى تفاصيل المحور الأول لابد من الاشارة الى أن ابن حزم موضع اهتمام الكثير من الرسائل والكتب ، الدراسات والمقالات .

والحد الأدنى أنى تابعت عنه خمس رسائل تناولته من زوايا مختلفة ٢

ثلاث منها بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر (٣) .

والرابعة بكلية الشريعة جامعة الأزهر (٣) .

والخامسة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (٤) .

(١) ياقوت الحموى . معجم الأدباء — الجزء الثانى عشر — ص ٢٤٨ .

(٢) وهى :

— نصر محمد نصر — ابن حزم الأندلسى مفكرا وناقدا — رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين — جامعة القاهرة .

— محمد على حمادة — تحقيق كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم . رسالة دكتوراه بخانة أصول الدين جامعة الأزهر .

— ابراهيم محمد ابراهيم حريية — ابن حزم والقيمة العلمية لنقده اليهودية والنسبة انبة . مكتبة كلية أصول الدين — جامعة الأزهر ١٩٨٢ .

(٣) عبد الله بن عبد الله الزايد — ابن حزم الأصولى — رسالة دكتوراة بكلية الشريعة والقانون — جامعة الأزهر ١٩٧٤ .

(٤) عبد الجليم عويس — ابن حزم مؤرخا — رسالة دكتوراة — بكلية دار العلوم . جامعة القاهرة .

والمؤكد أن هناك رسائل أخرى في الجامعات المصرية ، والعربية .
والاسلامية تناولته من زوايا متعددة ، وآفاق متنوعة •

والمؤكد أن الجامعات الأجنبية وجهت بعضا من رسائلها لابن حزم
باعتبار أنه من رواد الأديان المقارنة ، وما كتبه في « الملل والأهواء
والنحل » فيه منهج جديد وأساليب غير مسبقة • ولقد أكد لى صديقى
الدكتور محمد خليفة — وهو اختصاصى في الأديان المقارنة — أن منهج
ابن حزم وكتاباته في هذا الصدد تعتبر منبعاً ثرا ، وكثرا هائلا حظى
بدراسة العديد من علماء الأديان المقارنة مسلمين وغير مسلمين •

وإذا انتقلنا الى الفكر الأسباني نجد عشرات الدراسات والمقالات
والكتب عنه يكفى الاشارة فيها الى كتاب شيخ المستشرقين الأسبان
« أسين بلاثيوس » عن « ابن حزم القرطبي » وقد نقله أستاذنا
الدكتور الطاهر مكي للعربية وسيصدر قريبا ان شاء الله •

أما الكتب والدراسات العربية عنه فكبيرة متعددة تناولته :

فقها وعالم أديان مقارنة ، ومؤرخا وأديبا ، وفيلسوف ومفكرا ،
وشاعرا وصاحب دراسة في الحب ليس لها مثيل •

أما بخصوص الفكر التربوى فقليلا ما عرض له ، ونادرا ما أرخ
له •• والحد الأدنى أن هناك رسالة ماجستير قدمت عام ١٩٧٨ لكلية
تربية الأزهر عن طريق الباحث الجاد عبد البديع عبد العزيز الخولى
بعنوان :

« الفكر التربوى فى الأندلس — ٤٠٣ هـ — ٤٧٨ هـ » بإشراف المغفور
له الدكتور أحمد حسن عبيد •

وفى حدود علمى فهى الرسالة الوحيدة التى ركزت على فكره
التربوى فشمّل الفصل الرابع « ابن عبد البر وآرائه التربوية » وشمّل

الفصل الخامس « الفكر التربوى عند ابن حزم » • وفى كل منهما جهد واضح وعمل شاق • وفى بعض الحالات اقتصر صاحبها على رصد الفكر كما هو بدون تحليل أو تعليق ، ولعل هذه احدى خصائص رسالة الماجستير حيث يكون الباحث فى أول الطريق ، مكبل الخطى ، ملتصقا بموضوعه وغير قادر على التطبيق والتحليل ، وكلها مهارات تأتى بالمران والدربة ، والعمق والخبرة •

شخصيتان متفاملتان

ارتباط ابن حزم بعصره ومجتمعه ظهر في امتصاصه لخير من الميم والإتجاهات واختلافه مع المذاهب الأربعة من جهة أخرى مما أثار عليه العامة والدهماء ، والأمرء والمقهاء • وعلى الرغم من ذلك استمر في فنه وجهده ، بحيوية وخصوبة ، وحدة وقسوة دفعت الصوفى الأندلسى « ابن العريف » الى القول بأن لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان ! !

ومثل هذا الاختلاف أثبت حيويته وجديته ، وأصالته وتفردته ، وخصوبته وتطرفه الا أنه جعله يخرج عن اجماع الأئمة ويشتمل في أحكام تفتقد الدقة والصواب ، وان كانت تفيض جرأة وشجاعة •

وواقع الأمر أن علوم الشرع تحتاج الى كثير من التعقل وحسن الفهم أكثر مما تحتاج الى الجرأة والشجاعة التى قد تؤدى الى ابتعاد عن الأصل الصحيح وليس مجرد الشائع • وفارق كبير بين الصحيح ومجرد الشائع : فقد يكون الانتشار على باطل ، والذيع على غير أساس •

وعنصر الارتكاز في هذا الفصل أنه يمكن القول بدورة حياة وذبول ربطت بين الأندلس وابن حزم :

- مع تفتح هذه الدورة ازدهر ابن حزم •
- ومع ذبولها كسدت أوراقه وحرقت كتبه •

وبعد طول مراجعة وفحص يمكن القول بأن نشأة ابن حزم وصعوده ، وتألقه وأفوله ، ثم نفيه ووفاته شريدا مكثف لكل ما جرى في الأندلس من ظروف وتطورات ، ومحن واحن ، وشئون وشجون . وصعود وهبوط •

وقد يبدو ذلك من قبيل التشبيه أو الاستعارة ، أو المبالغة والمغالة الا أن التأمل والتعمق يكشف عن عمق الصلة بين الشخصيتين :

فالثراء والعزة ، التعدد والتنوع ، والرغاية والأناقة ، والخصب والموسوعية ، والصعود والهبوط يجمع بينهما بصورة واضحة وارتباط وثيق * *

والأغرب من ذلك أن خاتمة كل منهما جاءت مطابقة للآخر *

فالحسرق والتدمير الذى لحق بكثير من حواضر الأندلس ، لحق بختب ابن حزم ومخطوطاته فى القرن الخامس *

والتكالف والانسجام الذى جمع الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، بعث بختبه ومنهجه مع مطلع القرن السابع *

فالكساد والانهيار لحق بهما معا ، والذیوع والانتشار تجلى فيهما معا *

تأسيسا على ذلك يمكن القول بأن الأندلس كان ثقافة أكبر ، فى حين كان ابن حزم ثقافة أصغر ضمت ذات الملامح ، وحملت نفس الصفات * صفات الميراث الاجتماعى والتفاعل البشرى ، لا الوراثة البيولوجية *

وقد تبدو فكرة التشابه هذه بها كثير من المبالغة والتجاوز . والتمهل والتأمل الا أن الاشارات تؤكدھا والدلائل تثبتھا * فثم صفات مشتركة ، وقسمات متشابهة بين الأندلس وابن حزم بحيث يمكن القول بأنسنة المجتمع ، واجتماعية المفكر * بعبارة أوضح يمكن القول بحزمية الأندلس ، وأندلسية ابن حزم ! ! فكلاهما تعبير عن شيء واحد ، وواقع مشترك *

والمؤكد أن الأندلس تميزت بصفات حضارية مغايرة للمشرق •

صحيح أنها انطلقت منه إلا أن تركيبها البشرى وموقعها الجغرافى، وجذورها وأصولها ، وظروف حكمها ومؤسساتها ، ودرجة حريرتها وتسامحها (١) ، وتفاعلها وتصادمها مع أوربا كل ذلك ميزها بصفات متفردة ظهرت فى ثقافتها المادية والمعنوية ، ومعمارها الهندسى والفكرى ، وانتاجها الفلسفى والشرعى ، وتراثها العلمى والفنى ، وأدبها الشعرى والنثرى ، وموشحاتها وأزجالها ، وموسيقاها وغنائها ، وتنظيماتها المدنية والعسكرية ... الخ •

ومثل هذه الصفات لم تكن عفوية أو تلقائية ، بل نمت وتفاعلت بجهد مفكرىها وعطاء باحثيها فى مختلف الميادين النقلية والعقلية ، والنظرية والعملية • من هنا يمكن القول بأن « الأندلسى ايبيريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق يحس بشخصيته الأندلسية • وهذا ما عبر عنه ابن حزم بقوله :

ويا جوهر العين سحقا فقد غذيت بياقوته الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أندلسهم وطناً ، يتعبدون به دواما ويتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون اليه وجدا ، حين يكونون بعيدين عنه • وليس مهما بعد ذلك أنهم لم يعرفوا كيف يدافعون عنه ! ! » (٢) •

(١) تشير بعض الدراسات الى أن درجة الحرية والتسامح فى الأندلس كانت أوفر من درجتها بالمشرق الإسلامى .

See : Elmer Wilas & Knneht Lottich. The Foundations of Modern Education. Holt, Rinehact and Winston. mc. U.S.A. 1962 .

(٢) الطاهر أحمد مكي — دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، القاهرة — مكتبة وهبة — الطبعة الثانية ١٩٧٧ ص ١٨ .

طبعاً لا يعنى ذلك أن الأندلس خلعت جذورها عن المشرق ،
أو صرفت نظرها عنه ، بل العكس هو الصحيح « غالتقليد للمشرق كان
أمراً طبيعياً بل كاد يكون ضمناً لعدة أسباب منها أن الأندلس مهما
أحرزت من استقلال عن المشرق فإنها بنت المشرق ، ولم تنقطع صلتها
به ، وظلت الرحلة العلمية الى المشرق هي منبع العلم والعرفان » (١) .

ويعود صاحب النص السابق الى تأكيد فكرته بقوله :

« وسمت الحياة الثقافية الأندلسية منذ البدء بالاعتماد على
المشرق ، والتقليد لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة ، واليه
يلتفت الأندلسيون في تجارتهم ويرونه منبع العلم والدين ، وموطن
القداصة والحج » (٢) .

ورغم توافر الامكانات والطاقات ، الجهود والمحاولات الا أن صلة
الأندلس ظلت راسخة ممتدة الى حد التقليد في كثير من الحالات . ولعل
هذا ما دفع المؤرخ الأندلسي « ابن بسام » الى القول ناعياً على قومه
تقليدهم الأعمى للمشرق :

« هلو نعنق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق
دباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكما !! » (٣) .

ولا شك أن نص « ابن بسام » يوضح الرغبة في الاستقلال عن
أسر المشرق ، وقيود ثقافته ، وهذا ما حدث خطوة خطوة ، ومرحلة
بعد أخرى .

(١) احسان عباس — تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة
قرطبة — دار الثقافة — بيروت . الطبعة الخامسة ١٩٧٨ ص ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٣) ابن بسام — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة — المجلد الأول —
الجزء الأول — دار الثقافة — بيروت ١٩٧٩ ص ١٢ .

فتدريجياً نما الشعور بالفطام النفسى والثقافى ، والاستقلال
القدرى والادبى وكيف لا وللأندلس كل ظروف الاستقلال والتميز :

فبيئتها مغايرة لبيئة المشرق بشرا وحجرا ، ومناخا وموارد ...

وجذور الحضارة الغربية المسيحية الضاربة فى تربتها لا وجود
لها فى المشرق ...

وتركيبها البشرى من عرب وبسريمر ، ومسلمة (١) وعجم ،
ومولدين (٢) ومسيحيين (٣) ، ويهود وصقالبة كلن شيئا متميزا لا مثيل
فى العالم الإسلامى .

وثراؤها الاقتصادى أفاض عليها بالخير والنعمة ، ووفر لها
الخدمات الثقافية والتعليمية ، والصحية والبيئية .

ولهذا بدأت الأندلس فى عملية الاستقلال والفطام « فحينما
لمعتقربك شخصية الأندلسى وأحسن بذاته ، استغنى عن الرحلة الى
المشرق ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من اشبيلية بان يذهب
للأزهر ويدرس الكتاب لسيبويه ليثبت للمشاركة أن الأندلسيين تمتنوا
من العلم ، واستوعبوا تفاصيله » (٤) .

لهذا كله فليس غريبا أن يدور الحديث عن « الشعور بالأندلسية »
أو الشعور بالذات الثقافية بدلا من الذوبان فى شخصية المشرق
« فالشعور بالأندلسية كان ينمو مع الأيام ، وكانت البيئة تعمدق
خصائصها فى الخلق وطرق الحياة ، وكان الاختلاف بأهم بعيدة يدعو

(١) أطلق المؤرخون العرب اسم المسألة على الأسباب التى دخلوا
الإسلام مع الفتح مباشرة .

(٢) المولدون هم الذين ولدوا من أبناء العرب ونشأوا على الإسلام .
(٣) المستعربون نصارى الأسباب الذين عاشوا المسلمين وتربوا
واقاموا فى ديار الإسلام .

(٤) الطاهر أحمد مكي دراسات ابن حزم وكتابه طوق الحمامة .
مرجع سابق ص ٥٥ .

الى الابتعاد عن المشرق في الزى والروح ، والعادات ، واللهجة ، والتعبير والأمثال . . . ولقد حاول المستنصر ثم ابن حزم أن يرسمنا للأندلس حدودا ثقافية وأن يقفا بها على مستوى المشرق ، ولكن تقديس ثقافته والأدب المشرقي ظل حادا ساطعا » (١) .

الا ان الشعور بالأندلسية أو الشخصية الأندلسية لا تعنى قطع بل صلة بالمشرق ، وهذا ما حاوله بعض المستشرقين .

فهنرى بيريس Pérés — مثلا — حاول عزل الأندلسيين عن جذورهم المشرقية وجعلهم نباتا طبعيا للشعوب والحضارة المسيحية التى كانت سائدة بالأندلس قبل الاسلام . « ومثل هذا الحكم الجازم لا نستطيع ان نوافق المشرق عليه ، ولا نستطيع الآثار نفسها ان نوافقها على هذا الزعم » (٢) .

من هنا أكد الدكتور « جودت الركابى » ان الحضارة الأندلسية مثلت له ثلاثة أضلاع :

الاختلاط ، والحياة الجديدة ، والأصل العربى ؛ بل الحياة العربية التى تملأ مخيلة الأندلسى . لهذا ظل الأندلسى شرقيا فى تفكيره ، شرقيا فى أسلوب تعبيره الى جانب بعض المميزات لا يمكن الفرار منها نجمت عن اختلاف المحيط الجغرافى والانسانى .

من هنا فقد أخطأ « هنرى بيريس » عندما حاول عزل الأندلس عن أصلها وجذورها العربية (٣) .

(١) احسان عباس — تاريخ الادب الأندلسى — مرجع سابق — ص ٣٩ — ٤٠ .
(٢) جودت الركابى — فى الادب الأندلسى — دار المعارف بمصر — الدفعة الرابعة ١٩٧٥ ص ٤٦ .
(٣) المرجع السابق — ص ٤٥ — ٤٦ .

اذن يمكن القول بأن رغبة الأندلس في الاستقلال أسهم فيها ابن حزم بصورة واضحة وجهد كبير • ولم يقتصر ذلك على منهجه وفكره بل امتد الى شخصيته وحياته ، فابن حزم رفع شعارا غاية في الحسم والوضوح :

« المجتهد المخطئ أفضل عند الله من المقلد المصيب ! ! » •

وبذلك أسهم في التطوير والتجديد ، والانفتاح والاستقلال ليس في الفقه وأصوله ، بل أيضا في الاقتصاد والسياسة ، والأدب والفكر ، والاجتماع والعمران • فمن خلال منهج ابن حزم ففتح باب الاجتهاد ، وهجرت الكتب الاتباعية ، وجرب التأمل والبحث الحر ، وشجع الابتكار والابداع •

وهنا أيضا تظهر الصلة الوثيقة بين الثقافة الأكبر والثقافة الأصغر :

فالمجتمع يريد انفتاحا وانطلاقا من أسر المشرق وقيود الاتباع • وابن حزم يؤكد أن المجتهد المخطئ أفضل من المقلد المصيب •

وبذلك التقت الرغبة الاجتماعية مع المنهج الفكري وحدث التلاحم والتفاعل بحيث بصعب في النهاية أن نعرف نقطة البداية ومحور الانطلاق •

اذن دعوة ابن حزم لم تكن مجرد دعوة فقيه مجدد أو مفكر متمرد ، بل أيضا رغبة مجتمع أراد تجديد تجربته وتخليص جذوره من ارتباطات المشرق •

وشبهه بذلك ما حدث في الولايات المتحدة •

ملفت بدأت من روافد أوربية فكريا وثقافة • وأدب وثقافة • ونظاما وعقيدة • وتدرجيا تفاعل المهاجرون مع محسّلات مفايرد وامكانات

مختلفة • ومن خلال الممارسة والفعل المحاولة والخطأ ، والتحدى والاستجابة نشطت الرغبة في التحرر ، والدعوة للاستقلال •

بطبيعة الحال لم يخل الموقف من جماعات تمسكت بالقسـارة الأوروبية ، ورفضت أى انفصال عنها الا أن المطالب والتحديات فرضت التجديد والاستحداث ، والانفصال والاستقلال في المظاهر المادية والمعنوية ، واللغوية والاجتماعية •

هكذا كان موقف الأندلس :

رغبة في التخلص والتخلص ، التجديد والانطلاق وتفاعل ذلك مع منهج « حزمى » يدعو للتفكير والاجتهاد من غير التزام باجماع مشكوك فيه أو قياس لا دليل عليه •

ولا شك أن هذه الرغبة صادفت تشجيعا ودعما ، وهجوما وصدا •

ففقهاء المالكية ^(١) وجدوا في الظاهرية الحزمية خروجاً عن الأصول ، وتمردوا على القواعد • وأصحاب الثقافة الشرقية وجدوا في التجديد انصرافاً عن الأصل وعزواً عن المنهل •

وعلى العكس من ذلك أراد عدد من الخلفاء والأمراء قطع كل صلة بالأموية الأندلسية أو الشرقية ، وأرادوا دخول التاريخ من بوابة غير التى دخل منها ملوك المشرق لذلك قيل بحق « كان دور الدولة الأموية في الأندلس مزدوجاً يقوم على توطيد الملك للأمويين ، ثم على تنمية استقلال الأندلس السياسى عن المشرق ومنافسته في مظاهر الحياة الثقافية » ^(٢) •

(١) كان المذهب المالكي هو السائد في المغرب والأندلس ، بعكس المشرق حيث كانت المذاهب الثلاثة الأخرى أكثر شيوعاً وقد يكون لواحد منها سيطرة في قطر ومشاركة في آخر •

(٢) لطفى عبد البديع — الاسلام في اسبانيا — النهضة المصرية — الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص ٦ •

وعلى هذا الأساس انطلقت حركة تجديد للإصلاح من جذور الماضي وتفاعلت معها فكرية ابن حزم * ولا يدري كاتب هذه السطور عن نقطة البداية هل كانت من المجتمع أم من ابن حزم ؟ والراجح أن كلاما تحزك معا تأثرا وانفعالا . واستجابة ودعما لادالب جديدة وحاجات ملحة * .

الا أن المسألة لم تمر من غير مقاومة ومواجهة * .

فمنهج ابن حزم أدى الى احراق كتبه * بل نكاد أن يحرق معها مما اضطره للهرب من بلد لآخر من غير ترجيب من أحد ، أما جنقا من أمويته أو تخوفا من منهجيته ، وهذا ما سبق أن أشار إليه ابن حيان الأنيخ ، كما رده ابن حزم مرارا * .

والمؤلم في الأمر أن كتب ابن حزم حُرقت في القرن الخامس ، عندما تصاعد نجمه مع الموحدين في القرن السابع حُرقت كتب الإمام مالك ! !

وهكذا نشرت كتبه بعد أن طويت ، وذاعت بعد أن حُجبت مؤكدة أن الحرق لم يكن علاجا بل ضررا ، لهذا كان تعليق شيخنا «أبو زهرة» صائبا عندما قال :

« أحرقت كتب المالكية كما أحرقت في عهد ابن حزم كتب الظاهرية ، وما كان للأولى مبرر ، وما كانت الثانية سائغة ولا مقبولة » (٣) .

هذه لوايح وسوانح توضح وثيقة صلة ابن حزم بأندلسه بحيث يمكن القول بأنه كان أندلسا مصغرا ، والأندلس كان ابن حزم مكبرا ! !

(١) محمد أبو زهرة — ابن حزم — حياته وعصره وآراؤه الغفيرة — دار الفكر العربي — القاهرة ١٩٥٦ ص ٥٢٠ .

ومع ما بهذا الوصف من تشبيه واستعارة ، إلا أن الشواهد توضح الصلة بينهما بحيث كادا أن يتوحد فيصبح المجتمع أُنسانا ، والإنسان مجتمعا مع عدم اهمال الفروق والاختلافات .

وإذا كان بعض الكتاب يعتبرون أن كثيرا من آراء الفلاسفة ومذاهبهم من مناعب الطفولة ، أو غرام المراهقة ، أو شطط العيش ولينيه ، أو الكتب التي شأقتهم (١) فإن كاتب هذه السطور يذهب الى أبعد من ذلك بحيث يمكن القول بأن المفكر تغيير وتصوير لمجتمعه . كما أن المجتمع — أحيانا — يكون صورة مكبرة لمفكره ، فهناك تبادل بين الفرد والجماعة ، فالفرد يؤثر في الجماعة والعكس بالعكس . وفي كثير من الحالات فإن الشخصيات الكبرى مرايا شعوبها ، وفكرة التوحد والاندماج هذه قد تبدو غير علمية ، ومع ذلك فبعض المؤرخين يعترفون بها ويندلقون منها ، من ذلك ما فعله « فيليب حتى » عندما حقق رنشر منذ خمسين عاما كتاب « الاعتبار » الأسماء بن منقذ حيث أكد على « أن حياة أسماء بن منقذ تمثل الفروسية الإسلامية على ما ازدهرت في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى ، وسيرته تقتض منجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر الميلادي . أما مذكراته الموسومة باسم كتاب الاعتبار فهي مرآة تتجلى فيها المدنية الشامية في أجلي مظاهرها ، وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل أيضا بالمعارضة مع المدنية الفرنجية التي قامت الى جانبها » (٢) .

أذن هذا الاتجاه معترف به وموافق عليه من بعض المؤرخين .

(١) هنري توماس واتلي توماس — المفكرون من سقراط الى سارتر
ومقدمة. ثلاثان مهمة — مقدمة المترجم — الانجاو ١٩٧٠ ص ٣ .
(٢) محمد بن هاشم الهاشمي . ذكرى المربي الأمامي أوارد شيرانجر .
نكر وفن — العدد الثامن ١٩٦٦ — سويسرا ص ٢٤ .
(٣) أسماء بن منقذ — كتاب الاعتبار — حرره فيليب حتى — مطبعة
جامعة برنستون — الولايات المتحدة ١٩٣٠ — مقدمة المختصر .
س ب ت .

وإذا كانت حياة أسامة بن منقذ تمثل غروسية القرن الثاني عشر ،
ومذكراته مرآة لثقافة الشام ، فكذلك حياة ابن حزم تمثل أندلس
القرنين الحادي والثاني عشر وكتبه مرآة لأندلسه وعصره •

الأسرة والمولد :

كالمعادة اختلف المؤرخون حول أصل أسرته وجذورها العرقية
والثقافية ، وموقعها الاجتماعي والاقتصادي •

وكما كان يحدث في المشرق من اختلاف حول النسب وهل يرجع
الى العرب أم الموالي : الى الفرس أم الترك ، الى الأفغان أم الهنود ،
كذلك كان الأمر بالنسبة لابن حزم •

فالبعض عاد بأصله الى جذور فارسية دخلت الاسلام مبكرا منذ
الفتوحات الأولى لفارس •

وبالبعث عاد بأصله الى مسيحيي الأندلس ، وبذلك دخل جده
الاسلام في عهد متأخر •

وبالبعث وقف موقف الحائر المتشكك حول نسبه وأصله •
ووجهة النظر الأولى أكثر شيوعا وصدقا ، أيدها صاحبها ومعه
غالبية المؤرخين القدماء ، ومعظم المعاصرين •

وبذلك يمكن القول بكثير من الثقة أنه فارسي الأصول دخل جده
الاسلام وصار مولى من موالى يزيد بن أبى سفيان شقيق معاوية
ابن أبى سفيان •

ووفقا لهذه الرواية فالجد الأعلى أموى الولاء ، ولعل هذا
سر أموية الأسرة مما عرض ابن حزم لكثير من العنت عندما اضطر
أنصار الاتجاه الأموى •

ثم توالى العقود وقدم جد لابن حزم اسمه « خلف بن معدان » الى الأندلس وقد اختلف فى وقت قدومه فالبعض أكد أنه جاء مع حبش موسى بن نصير عام ٩٣ ، والبعض يؤكد أنه هاجر مع عبدالرحمن الداخل عام ١٣٨ •

وأيا كان موعد دخول « خلف بن معدان » فالحكم أن هذه الرواية تؤكد ثلاثة أمور :

قدم عهد الأسرة بالاسلام ، وأصلها الفارسي ، وولائها الأموي •
ولقد كان ابن حزم صريحا فى تأكيده هذه الرواية بقوله :

أبى ساسان ^(١) ودارا وبعدهم
قريش العلى أعياصها والعنابس
فما أخرت حرب مراتب سؤددى
ولا قعدت بى عن ذرى المجد فارس
هذه هى وجهة النظر الأولى •

أما وجهة النظر الثانية : فان البعض استكثر عليه أن يكون عربيا ، وأرجعه الى أصول مسيحية ! ! وكأن الحضارة الاسلامية عاجزة عن انجاب عباقرة مثله •

ومنذ صفحات قلائل سبق الرد على المستشرق « هنرى بيريس » الذى أكد أن الأندلس قطعت صلتها بالشرق واستمدت عصير حياتها من التربة المسيحية الأسبانية •

والآن نفس الفكرة يرددها « سانتشيت البرنس » فى دراسته « ابن حزم قمة اسبانية » التى يؤكد فيها أنه اسباني متعرب بعكس

(١) فى رواية اخرى ورد هذا الشطر « سما بى ساسان » •

(م ٣ — ابن حزم الاندلسي)

ما قال أورتيجا الذى قال أنه عربى أسبانى » (١) .

ولا يقتصر الأمر على كونه اسبانيا تعرب بالثقافة ، بل ان أمه
اسبانية على التأكيد ، ولعل أباه أيضا كان اسبانيا (٢) .

اذن ابن حزم — من وجهة النظر هذه — ثقافته اييرية ، ودماءه
اسبانية (٣) .

أما أن الثقافة الاسلامية العربية شكلت شخصيته ورسمت ملامح
فكره فان سانتشيت يرد على ذلك قائلا :

« صحيح أنه مسلم ومتعرب حتى الأعماق ، لكن روحه واصلت
اسبانيتها دون أن تنحرف ! » (٤) .

فكل ما فيه من صفات وخصال تؤكد اسبانيتها : فما فيه من غضب
وحق ، تمرد وتفجر ، شعور بالحسد والاضطهاد ، اعتزاز بالقدرة
ووفاء لها ، بغض للنفاق والكذب ، لذاعة قلم وحدة لسان ، احتقار
للعادات الذميمة والتسلق الاجتماعى . . الخ . كل ذلك أرجعه
« سانتشيت البرنس » لأصول اسبانية عرقية ومزاجية ، ثقافية
وشخصية .

فجميع ملامح ابن حزم — سواء التى كتبها أو كتبت عنه — تؤكد
اسبانيتها « فى عمق الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، والطلاقة اللسان .
واستقامة الكلمة والوفاء ، وتحليق الروح نحو الله ، والقسوة فى نقد
الوطن ، وحب الحقيقة ، وشدة الخلق ، والحماسة التى تبلغ حد

(١) سانتشيت البرنس — ابن حزم قصة اسبانية . الطاهر بن
(محرر ومترجم) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة . مرجع سابق
١٩٧٧ ص ١٤١ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٤٣ .

(٣) المرجع السابق . ص ١٤٤ .

(٤) المرجع السابق . ص ١٤٥ .

التضحية بالحياة دفاعا عن أفكاره وشرفه ، والنضال من أجل المثل العليا ، واحتقاره للثروة في مواجهة الشرف ، وكراهية النفاق ، واحتقار الملق ، والصلابة في الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب والبلاغة . كل ذلك يؤكد عرق اسبانيته وعراقتها . ويؤكد أن عددا كبيرا من شخصيات الاسلام العظيمة في اسبانيا ، شخصيات لا يمكن استثناءها من ارثها الاسباني وخضوعها له ^(١) . فهي مسلمة بالديانة اسبانية بالعرق والثقافة ، والطباع والخصال ، والفكر والروح .

والحق أن هذا المستشرق لم يجرد ابن حزم فقط من اسلاميته وعروبته بل جرد كل النجوم والأعلام الأندلسيين فأرجعهم جميعا الى أدول اسبانية لا يمكن اهمالها أو اغفالها !! .

ولم يكتف « البرنس » بذلك بل جرد العرب كلهم من أصلاتهم وعبريتهم « فأبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الاسلام ، بينما واصلت أغلبية العرب حياتها في جزيرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التي صنعها المنحدرون من أصلاب الذين انهزموا أمام الاسلام » ^(٢) .

اذن القضية ليست « ابن حزم » وأعلام الأندلس فحسب . بل الجنس والثقافة العربية التي ظلت متخلفة متدنية ، قابضة خامدة في شبه الجزيرة ، واكتفت بأن فرضت الاسلام بحد السيف على الشعوب المقهورة ! ! .

وفي حين أن الشعوب المقهورة تقدمت وانطلقت ، أبدعت وجددت ، أفاضت وأضافت لم يستطع العرب أن يستفيدوا من هذه الحضارة بأدنى نصيب ! ! .

(١) اارجع السابق . ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٤٠ .

ويبدو أن « سانتشت البرنس » وغرسيه غومث — وغيرهما — لن يستريحا من هذا القدح والتجريح ، والذم والتنديد لأن هناك حقدا نفسيا عميقا يوجه شعورهم ولا شعورهم • ولعل الفقرة الأخيرة من دراسة البرنس تكشف عن هذا :

« طوال عصور التبلور الحاسمة ، أحس بالغم دائما ، لأنى أدرك الأذى الذى لحق بوطنى عندما فتحة الاسلام وحكمه » (١) ! !

هذه هى المشاعر اللاشعورية التى تحرك الكثير من المؤرخين الأسبان بحيث ينسبون كل فضيلة لهم ، وكل رذيلة للحكم العربى الاسلامى الذى سيطر على بلادهم بالحديد والنار ، وحكمها بالقهر والعسف ! !

ومثل هؤلاء المستشرقين ما استطاعوا خلاصا من رحم ثقافتهم ولا سيطرة تعصبهم الدينى مهما بذلوا من جهد ، وزعموا من حيدة • • وبذلك انطبق عليهم ما قاله المستشرق والباحث الفرنسى « مكسيم رودنسون » :

« بدأ الناس يدرسون اللغات ويجمعون المعلومات عن الشرق لأغراض عقائدية محضة • • ففى أسبانيا العصور الوسطى بدأت الدراسات العربية استجابة لحاجة العمل التبشيرى • • وفى عام ١٥٨٦ أسس الكردينال فردينانو دومدنتش أول مطبعة عربية فى أوروبا كان الهدف المعلن عنها — على الأقل — مساعدة المجهود التبشيرى » (٢) •

بطبيعة الحال هذه الدراسة ليست فى موقف المحاكمة للمستشرقين الأسبان ، ولقد كفانا الله سبحانه وتعالى مؤونة الرد على اتهاماتهم

(١) المرجع السابق • ص ١٨١ •

(٢) مكسيم رودنسون — الصورة العربية والدراسات الغربية الاسلامية • شاخت وبوزوث — تراث الاسلام • القسم الاول • ترجمة محمد زهير السمهورى — الكويت ١٩٧٨ ، ص ٦١ — ٦٢ •

وتنديداتهم عن طريق شيخ الاستشراق الاسبانى أسين بلاثيوس (١) .
فقد رد على التخرصات التى تحاول ربط ابن حزم وغيره من أعلام
المسلمين بجذور أسبانية مسيحية ، وأعطاهم حقهم كمفكرين مسلمين
عرب *

وبطبيعة الحال فحديث البرنس وغومث ودوزى عن اسبانية
ابن حزم يمكن الرد عليها ببحوث مطولة وردود مقنعة ويكفى الآن اشارة
مثل هذه الأسئلة :

إذا كان ابن حزم أسبانيا فما السر فى ردوده المطولة المقنعة على
المسيحية واليهودية ؟

وإذا كان أسبانيا متعربا فما السر فى عمق صلته بدينه واعتزازه
بثقافته الاسلامية العربية ؟

لماذا كان خصما لدودا ومجادلا مفحما للمفكرين اليهود والنصارى
فى عصره ؟

ثم هل يحكم على المفكر بنسب دمائه أم برواغد فكره ومعالم
انتاجه ؟

هذا السؤال الموجه لسانتشت ، والبرنس ، ودوزى ، وهنرى
بريس وغيرهم سؤال هام وجوهري :

فهل كان ابن حزم فى « الفصل بين الملل والأهواء والنحل » يعبر
عن ثقافة اسلامية أم عن دماء اسبانية ؟

وهل كان فى كتابه « المحلى » يعبر عن نفسه كفقيه اسلامى
أم كمفكر جذوره مسيحية ؟

(١) اسين بلاثيوس ١٨٧١ — ١٩٤٥ راهب اسبانى يعتبر شيخ
المستشرقين الاسبان كان حجة فى الفلسفة الاسلامية — نشر العديد من
مخطوطاتها ، وكتب العديد من بحوثها ، وترجم الى الاسبانية الكثير من
كأوزها . من مترجماته كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وقدم له
مقدمة ضافية .

وهل الاسلام يحكم على الناس بدمائهم وألوانهم ، أم بدينهم
ومعاملاتهم ؟

وماذا يقصد بمفهوم الاسبانية هذا ؟

أسئلة كثيرة يعجز هذا الاتجاه الاسباني عن الاجابة عليها .
ولقد سبق للمفكر الاسباني أميركو كاسترو (١٨٨٥ — ١٩٧٣) أن ألف
كتابا بعنوان « حقيقة اسبانيا التاريخية » أكد فيه أن لفظة اسبانيا
لحظة الفتح الاسلامي كانت تعنى امتدادا جغرافيا فحسب دون أن تكون
لها دلالة أبعد من ذلك ، قومية أو دموية أو فكرية ^(١) . وتجاهل
ذلك تضليل وتحريف التاريخ ، انحراف وافساد للثقافة ، وبذلك رد
كاسترو على مواطنيه الذين أرجعوا كل تفوق ونبوغ أندلسي الى جذور
اسبانية .

والى مثل ذلك ذهب الدكتور الطاهر مكي .

فابن حزم — عنده — ينحدر من اصول ليست واضحة تماما .
وأشدها احتمالا — وهذا أمر غير مؤكد — أنه ينتسب الى أسرة من
المولدين . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة لا جنسيا ولا دينيا .
انما من غير العلمى أن يطلق عليه أنه كان اسبانيا بالمعنى القومى
لهذا المصطلح . فالقومية الاسبانية لا يمكن أن نذهب بها فى أشد
الاحتمالات الى أبعد من نهاية القرن الثالث عشر ^(٢) .

محمل القول أن هناك تيارين أساسيين :

تيار أرجع ابن حزم الى أصول فارسية دخلت الاسلام مبكرا
أو هاجرت الى الأندلس مع الفتح الاسلامي أو بعده بقليل .

(١) الطاهر مكي — دراسات عن ابن حزم — : م. د. م. ج. ١٠ .
ص ٩ — ١٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٢ — ٧٣ .

وتيار أرجعه الى أصول اسبانية مسيحية تصدره المؤرخون
الاسبان واعتمدوا على ابن حيان وابن سعيد . ورد عليهم عدد مرموق
من منتقري الاسبان والمسلمين •

والراجع عند معظم المؤرخين والكتاب الرأى الأول . وحتى لو كان
للرأى الثانى نصيب من حجة أو وجهة فالمهم الثقافة التى تتقف بها ،
والدين الذى زاد عنه ، واللغة التى تعمق فيها وعبر عنها ، والمناخ
الذى شكله ورباه ، أعده ونماه فكل هذه الأصول تؤكد أنه كان
تعبيرا عن الثقافة الاسلامية العربية فى أرقى صورها وأعلى معدلاتها ،
حتى لو كان بدمه دماء ايبرية وباسرته نسبة اسبانية ، فليس المهم
التشخيص الاثنولوجى والتحليل العرقى ، بل التعبير الثقافى والأصول
الاجتماعية الدينية الفكرية •

والمتتبع للفكر الفرنسى بخاصة يجد حسما لهذه القضية :

فالمفكر الذى يعيش فى ثقافة معينة ، ويعبر بلغتها ، ويتبنى قضاياها
ومشكلاتها ينسب الى أدب هذه الثقافة بدلا من نسبته الى الدماء التى
تجرى فى عروقه ، وقوانين الوراثة التى تحكم مورثاته وصبغياته •

النشأة والثقافة

ولد ابن حزم فى نهاية رمضان سنة ٣٨٤ وتوفى فى آخر شعبان
سنة ٤٥٦ أى أنه عاش اثنتين وسبعين سنة مع نهاية القرن الرابع
ومنتصف القرن الخامس •

وكان أبوه أحمد بن سعيد وزيرا من وزراء المنصور العامرى •

من هنا نشأ ابن حزم نشأة مرهقة ناعمة ، فى بيئة ارسنقراطية
مثقفة لهذا عندما تناظر مع القاضى أبو الوليد الباجى المالكى . قل
الباجى :

لقد طلبت العلم وأنا أسهر في مشكاة من الزيت وطلبتنه أنت وأنت
قادر عليه معان له • فرد ابن حزم ردا واضحا حاسما • يكشف عن
طبيعته الحادة ولسانه الصارم :

لقد طلبت العلم كما تعلم من حالى ، ولكنك طلبتته لتحصير فى مثل
مالى • •

وفى هذه البيئة الناعمة الخالية من المشقة والجهد نان للنساء
تأثير كبير فى تربيته وتوجيهه ، تنشئته وتطبيعه من ذلك ما قاله فى « طوق
الحمامة » :

« لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعنمه غيرى ،
لأنى رببت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ،
ولا جالست الرجال الا وأنا فى حد الشباب وحين تفيل وجهى (١) ،
وهن علمتنى القرآن ورويننى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط (٢) .
ولا شك أن لهذه النشأة آثارا واضحة على الفكر والسلوك .
الشخصية والاتجاه ، الشعور واللاشعور •

وبدون توغل فى الآثار الشعورية واللاشعورية للتربية النسائية
من الحریم والجوارى ، فالمتوقع أن يكون تأثيرها مختلفا عن تربية
الرجال والمؤدبين • وفى ذلك يقول ابن حزم عن نفسه :

« لم يكن كدى مذ أول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جدا ، الا تعرف
أسباب النساء ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى
شيئا مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها : وسوء

(١) تفيل أى اكتمل نموه .

(٢) ابن حزم • طوق الحمامة — قدم له وحققه فاروق سعد — دار
مكتبة الحياة • بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

ظن في جهنم غطرت به » (١) .

والعاملون بالدراسات التربوية يعلمون أن تأنيث هيئات التدريس — حتى في المرحلة الابتدائية — له بعض الآثار السلبية على سلوك التلاميذ الذكور .

فالأطار الثقافي للمرأة ، واهتماماتها ودوافع سلوكها تختلف نسبيا عن الرجل . . والعادات والاتجاهات التي ارتبطت بدور المرأة ووظائفها خلال آلاف السنين لا بد أن تترك بعض الآثار على سلوكها ، تنتقل باللاشعور لأجيال المتعلمين الذين تتعامل معهم . فالمعاشرة والافتداء ، والتفاعل والاختلاط لا بد أن تكون له بعض الآثار الجانبية التي تكسب التلاميذ الصبيان بعضا من انثويات المرأة وأسلوب حياتها الخاص .

فالطفل يتخذ من المعلم بديلا للأب Father figure substitute في حين أن المعلمة بحكم تكوينها وتاريخها مشحونة بشحنات عاطفية أكثر من الرجل ، مما يعتقد معه أن طريقتها في تربية المتعلمين ستختلف نسبيا عن طريق تعليم المعلمين الذكور .

فالعاطفية الزائدة ، والاهتمامات النسائية ، وطريقة الاستجابة للمثيرات المختلفة ، واتجاهات المرأة نحو بعض القضايا كل ذلك — وغيره — يمكن أن ينتقل تدريجيا مع طول عشرة الصبيان للمرأة معلمة وموجهة ، مربية ومرشدة . .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

وفي تقديرى ان شيخنا الكبير المغفور له « محمد أبو زهرة » قد تجاوز عندما ذكر في كتابه ان ابن حزم مفطور على سوء الظن . في حين ان النص السابق يفيد انه مفطور على سوء الظن بالنساء نظرا لما شاهده ولاقاه منهن في مرياه .
راجع : محمد أبو زهرة — ابن حزم — حياته وعصره — آراؤه وفقاهه ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

وعن فترة طفولة ابن حزم بين الحسريم . كتب الدكتور الطاهر منى
« لقد تعلم منهن أشياء ليست أقل نفعا ، ولكنها مؤذية في سن الطفولة .
لقد أظهرته في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات
القصور ، وحيل النساء . فنشأ صبيا سريع التأثر ، كثير المرض ، ملحنون
العصبية ، متوقد الذكاء ، مطبوعا على الغيرة ، سىء الظن بالمرأة وقد
خبرها عن قرب ، وأشرف من أسبانيا على غير قليل » (١) .

وواقع الأمر أن ابن حزم — بناء على روايته في طوق الحمامة —
قد مرض في طفولته الأولى بخفقان القلب . ومثل هذا الاضطراب كان
سببا في احاطته بمزيد من العناية والرعاية ، والتدليل والحذب بتيت يحكى
عن نفسه أنه نادرا ما كان يخرج من قصر أبيه . ومثل هذا الخفقان
ظل مؤثرا عليه في الحزن والفرح من هنا قال في الطوق :

« انى لأصاب بالمصيبة المفادحة فأجد قلبى ينقطر وينقطع وأحس في
قلبي غصة أمر من العلقم تحول بينى وبين توفية الكلام حق مخارجه » .

والمرض الثانى الذى ألم به ، في سن الشباب وربما بعد الثلاثين
« لقد أصابتنى علة شديدة ولدت على ربوا في الطحال شديدا ، فولد على
ذلك من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمرا حاسبت نفسى
عليه ، اذا فكرت تبدل خلقى فاشتد عجبى من مفارقتى لطبعى » (٢) .

وزاد الطين بلة أنه أصيب بعة أخرى أقرب الى فقد الذاكرة :

« فذهب ما كنت أحفظ الا ما لا قدر له ، فما عاودته الا بعد
أعوام » (٣) .

(١) ابن حزم — الأخلاق والسر في مداواة النفوس — مرجع سابق ،
مقدمة الطاهر مكي ، ص ١٣ .

(٢) ابن حزم — الأخلاق والسر — مرجع سابق ، ص ٢١١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

وهكذا تناوشته الأعراض صبيًا وشابًا ، ولعل هذه العلك الجسيمة
أدسبت سلوكه في صغره وكبره اتجاهات معينة ، والحد الأدنى أن ضيق
الخلق وقلة الصبر جعلته ناغذ الصبر ، متجهم الفكر ، شديد الخصومة ،
سريع الانفعال ، حاد اللسان •

محمل القول أن ابن حزم ولد وعاش في كنف أبيه الوزير أبي عمر
أحمد بن حزم وتربى في قصر شامخ في ضاحية من ضواحي قرطبة تسمى
الزاهرة •

وواضح أن اسم الضاحية يعكس مستواها الاقتصادي الاجتماعي
فقد كانت ضاحية للأعيان والأثرياء تضم رجال الحكم والسلطان ، والمال
والجاه • تذخر بما فيها من نفائس ومجالس للعلم والثقافة ، والطرب
والسرويح • ولا شك أن هذه القصور كانت عامرة بالجوارى والقيان ،
سقر وسمر • فموقع الأندلس وموضعها ، ثراؤها وبهاؤها مكنها من جلب
جوار واماء من الاجناس الأوربية المجاورة ، وبعض الروايات توضح
أن ام فقيها ابن حزم كانت شقراء الشعر •

ويلحظ خير من الباحثين أنه كلما كتب عن امه أو أشار إليها في
كتاباتة الذاتية والمهم أن وضع المرأة الأندلسي — كما توضح بعض
المصادر — كان مختلفا نسبيا عن وضعها في المشرق نتيجة الظروف
الاجتماعية الثقافية التي ارتكزت عليها الثقافة الأندلسية ، ونتيجة درجة
أعلى من الحرية والتحرر الاجتماعي مما جعل للمرأة « دورا في حياة
الأسرة والمجتمع أهم بكثير مما كان لبنات جنسها في بقية أنحاء العالم
الإسلامي » (١) •

وبحكم أن أحمد بن سعيد — والد ابن حزم — كان أموي الاتجاه ،
عميق الولاء للأمراء وخلفائه فقد استوزره العامري ويقدر البعض أنه

(١) ليفي بروفنسال — الإسلام في المغرب والأندلس — ترجمه محمد
الدين حلمي — القاهرة ، ص ٢٩٤ •

كان « أقدر وزرائه وآثرهم لديه ، وقد استوزره سنة ٣٨١ — قبل ميلاد ابن حزم بثلاث سنين — ويبلغ من ثقة المنصور فيه أنه كان يستخلفه على المملكة في أوقات سفره ، ويعهد اليه بخاتمه » (١) .

ولما توفي المنصور العامرى سنة ٣٩٢ ، استمر أحمد بن سعيد في خدمة ولده المظفر ، فلما حدثت اضطرابات عام ٣٩٨ اعتزل الأمور وانصرف عن السياسة — مثلما سيحدث لولده فيما بعد — واضطرت الأسرة لترك ضاحية الزمراء وعادت الى دارها القديمة في الجانب الغربى من قرطبة .

ثم توفي الوالد عام ٤٠٢ وعمر ابن حزم ثمانية عشر عاما .

والمهم أن ابن حزم خلال هذه السنوات مع أسرته تربي على النعومة والرفقة ، الثراء والعز ، من هنا قيل عنه أن ولد يلبس الحرير . ولا يرضى من المكنتة الا السريير ! !

وبعد النشأة الأولى بين النساء والجوارى ، عهد به أبوه الى الشيخ أبى الحسين بن على الفاسى وكان عالما ورعا ، منصرفا عن الدنيا ، زاهدا النساء ، من هنا قال عنه ابن حزم أحسبه كان حصورا (٢) لأنه لم تكن له امرأة قط .

وهكذا تنقل ابن حزم من تربية النساء ، الى تربية رجل زاهد فبهن ! !

ومع تلقيه الدرس على يد أبى حسين الفاسى ، تلقى الحديث عن أبى عمر أحمد بن الجسور ولما يبلغ من العمر سبعة عشر عاما ، ثم تلقى وسمع من كثيرين أفاضت المراجع في وصفهم وتصنيفهم ، ويقدر

(١) ابراهيم محمد ابراهيم حربية . ابن حزم والقمة العلمية لنتده لايهودية والنصرانية — مرجع سابق ، ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢) الحصور الممتنع عن الانغماس في الشهوات .

عدد من تلقى عنهم نحو عشرين^(١) عالما أربيا ، ومفكرا أدبيا بين فقيه ومحدث ، عالم كلام ومتفلسف ، منطقي ومؤرخ .

والفريد أنه تلقى العلم بكل الوسائل المعروفة في تربية الحضارة الإسلامية :

- فقد تلقى من مشايخه عن طريق المساجد وحلقات العلم .
- واكتسب من الأدباء والشعراء من خلال قصور الأمراء والأعيان .
- وتعلم من علماء الكلام والمتفلسفة من خلال المناظرات والمساجلات .
- وأفاد من الاطلاع والقراءة في مئات الكتب والصفحات .
- وبذلك تعلم من المسجد والمكتبة ، والمناظرة والمساجلة ، والمنتديات وقصور الأمراء .

ولا شك أن الثراء المعرفي في قرطبة والأندلس بعامة انعكس على فكره . وانسكب داخل شخصيته لهذا كان جامعة متحركة ، ومكتبة زاخرة ، وبطبيعة الحال لم يكن وحيد زمانه أو فريد عصره ، بل كانت هذه سمة الاعلام والمفكرين ابان نهضة الأندلس والمسلمين .

والميزة أنه جمع بين علوم النقل والعقل ، والأدب والفن . فدرس المنطق والفلسفة على ابن الكتاني ، ومناظراته ومجادلاته خير دليل على أنه استوعب لبس فقط منطق اليونان وأساليب القياس وحجج المناطقة ، بل أيضا تشرب طريقة علماء الكلام وفلاسفة الحضارة الإسلامية .

فكتاباه الفاضل في الملل والأهواء والنحل ، وردة على ابن النفريفة اليهودي بكشفان عن موهبة أصيلة ، واطلاع واسع ، وتدريب طويل ، ومهارة في الرد والتفنيد .

(١) ابراهيم محمد ابراهيم حربية . مرجع سابق ، ص ٦٦ — ٧١ .

ودفاعه عن الظاهرية وردوده على مخالفيتها توضح مدى عمق اطلاعه على المذاهب وتبحره فيها ، والمعروف أنه كان مالكيًا في البداية . ثم عرج على الشافعية ، وأخيرا استقر ظاهريا . ومن المؤخذ أن رحلته المذهبية هذه وفرت له زادا في المعاملات والأحكام ، والأصول والفروع . ووسعت من مداركه ، وعمقت من روافده .

أما كتبه في التاريخ والسيرة ، والأدب والحب فتكشف عن حساسية وشفافية ، وذكاء ولصاحبة . وحسن اختيار للفظ ، وبراعة في السبك .

وبذلك كان تعبيرا واضحا عن ثقافة متطورة راقية ، معقدة مركبة لم تقتصر على مادة واحدة ، أو اتجاه معين .

ورحلته بحثا عن العلم ، وثلقيه على يد عدد كبير من المشايخ . وتنقيح دأخل المجلدات والمخطوطات جعلته يحدد منهجه في كتابه « التقريب لحد المنطق » :

« اعلم أن ما ذكرنا من الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث ، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال ، والنظر في طبائع الأشياء ، وسماع حجة كل محتج والنظر فيها ، والتفتيش والاشراف على الديانات والنحل ، والمذاهب والاختيارات ، واختلاف الناس وقراءة كتبهم » .

فشدة البحث ، وكثرة المطالعة ، والنظر في طبائع الأشياء ، أو سماع الحجج والنظر فيها ، والتفتيش في الديانات الأخرى والاشراف عليها : وتحليل كتب الآخرين كل هذه المواصفات والمهارات طالب بها ابن حزم والتزم ، اقتدى بها وتأسى .

ولقد جمع في ذلك بين منهج المحدثين الذي يعتمد على السماع من كبار المشايخ ، والارتحال بحثا عن العلم ، وبين منهج الفقهاء الذي يعتمد على النظر العقلي والتحليل المذهبي ، ومنهج الفلاسفة المعتمد على التحليل والمقارنة والقياس والاستنباط .

صحيح أن طبيعته الحادة ، واعتداده بنفسه ، وشكه في الكثيرين ، واختلافه السياسى والفقهى جر عليه المشاكل والأزمات ، ونفر منه الأصدقاء والأحباب .

ولا شك أن المحن والاحن السياسية التى عصفت بالأندلس وأطاحت ببنى أمية لحالاح الطوائف ، لا شك أن ذلك انعكس على حياة ابن حزم ففكر وسلوكا ، وظائف ومراتب .

فخلال الفترة التى عاشها ابن حزم ولى الأندلس خمسة خلفاء :

هشام المؤيد ، والمستعين الظاهر ، والمستظهر ، والمستكنى والمعتمد ، كما مرت فترات لم يكن على رأس الدولة خليفة .

عاصر هؤلاء الخلفاء فى الأندلس اثنتى عشرة دولة كان النزاع بينهما محتدما . والصراع حولها دائرا .

وقد وصف المقرئ فى « نفح الطيب » هذه الفترة بقوله :

« انقلعت الدولة الأموية بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الأفراد والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات واقتسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض واستقل أخيرا بأمرها ملوك استفحل أمرهم ، ولاذوا بالجزى يدفعونها للطاغية أن يظهر عليهم أو ييزهم ملكا وأقاموا على ذلك برهة » (١) .

ولما تولى محمد المهدى الخلافة مبتدئا عصر الطوائف ، ثم تولى هشام المؤيد انهالت على بيت ابن حزم النكبات والصدمات فتوفى الأخ الأكبر لابن حزم ، ثم توفى والده ، ولما تغلب جند البربر على قرطبة خرج منها ابن حزم سنة ٤٠٤ هـ وانتقل الى المرية .

(١) المقرئ التلمسانى . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب :
... محمد بن زمام . طبعة بلاق . المجلد الرابع ، ص ٥٩ .

وبعد ثلاث سنوات قبض عليه ، وبعد الافراج عنه اضطر للتوجه
لبلنسية والتقى بالمرتضى الامدى * وعاون ابن حزم وآزره . حتى
تحقق له النصر : فعينه وزيرا من وزرائه * .

وبعد سنوات قليلة اغتيل المرتضى ، فصار أنصاره عرضة
للاضطهاد والتنكيل ، فسجن ابن حزم من جديد ثم أفرج عنه وعاد الى
قرطبة وكان ذلك عام ٤٠٩ * .

ولما بويغ المستظهر سنة ٤١٤ استوزر ابن حزم وجعله من مقربيه * .

وكانت هذه المرة الثانية التي تولى فيها ابن حزم الوزارة ، الا أن
الحال لم يدم بالمنستظهر ، كما لم يدم من قبل للمرتضى ، فأسر ابن حزم
من جديد ، ثم أفرج عنه * .

ثم تولى الوزارة للمرة الثالثة لخليفة ثالث هو هشام المستنجد بالله .
وكان هذا آخر خليفة أموى تعاون معه ابن حزم ، ثم انصرف بعد ذلك
عن السياسة والحكم للدرس والبحث ، والمناظرة والمجادلة ، والتأليف
والنشر * .

وهكذا خدم مفكرنا ثلاث خلفاء المرتضى ، والمستظهر ، والمعتمد بالله
كل ذلك خلال ما يقرب من عشر سنوات * . وهذا التفتت والاضطراب .
والتمزق والانشقاق تناوله ابن حيان ، وابن الخطيب وسائر المؤرخين
أندلسيين ومعاصرين * .

وزاد من مشاكل الأندلس قريبا من بلاد الفرنجة وسقوط بعض
حكاهما فريسة للضغط أو الرشوة ، الخوف أو الطمع وفي ذلك يقول
ابن الخطيب :

« وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق ، الى
حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ،

والخلسة المجاورة لعبادة الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة ارث ، ولا في الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب . اقتتلعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الأعلام . وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت اليهم الفضلاء وهم ما بين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب . وينطبق عليهم قول ابن رشيقي :

مما يزدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كإهتركي انتفاخا صورة الأسد

بطبيعة الحال الصورة التي قدمها ابن الخطيب كررها الكثيرون من القدامى والمعاصرين ، وتكفي الإشارة الى الأوصاف التي قدمها مؤرخنا الكبير « محمد عبد الله عنان » عن أندلس منتصف القرن الخامس وكيف اقتضت أطرافها ، وتناثرت أشلائها ، وتعددت الرياسات في أنحاءها مما أغفدها مواردنا وقوامها تباعا : وأحرق بها خطر الغنائم من كل صوب (١) .

والميزة الوحيدة لهذا العصر — اذا كانت له ميزة — أن التفتت السياسى والانقسام الطوائفى ساعد على تنشيط حركة الثقافة والأدب، والفنون والعلوم .

فكل خليفة ووزير . وملك وأمير أراد أن يجعل من قصره مركزا للنشاط ومنبرا للشهرة . من هنا تغالى معظمهم في جذب انتباه الشعراء والأدباء . والمحاورين والمجادلين من قبيل المباهاة والمغالاة ، والشهرة

(١) محمد عبد الله عنان . دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى . مكتبة الخانجى . الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ١٤ .

(م ٤ — ابن حزم الأندلسى)

والذيوع كما كان بعضهم من محبي الفنون ومن قارضى الشعر • ويبدو أن هذه المجالس الثقافية الأدبية كانت من أهم أساليب التثريه والتسلية لعلية القوم فمن خلالها تنتم مجالس أنس وشرب ، بهجة وطرب ، وبذلك جمعت بين التثريه والتثقيف ، الامتاع والابداع !

ونشير كثير من المراجع الحديثة الى أن التفكك السياسى بعد الوحدة التى صنعتها قرطبة الأموية ، كان من أزمه . عصر الاسلام فى اسبانيا حيث أخذ التراث الأندلسى يؤتى أكله فى النشر والأدب ، والعمارة والفنون ، والعلوم العقلية والنقلية ^(١) فرغم التردى والتمزق استمر الاشراق العلمى الثقافى ، فمع سوء الأحوال . بهيب روح العلم مبنوثة ^(٢) ، وراياته مرفوعة •

وبقد استمر عهد ملوك الطوائف ما يزيد عن ثلاثة أرباع القرن من عام ٤٠٠ الى ٤٨٤ • وعندما بدأ عهدهم لم يتجاوز ابن حزم ستة عشر عاما ، لهذا يمكن القول بأن فترة نضجه عمرىا ومعرفىا ، وتأليف ونشرا ، ومجادلة ومناظرة كانت فى عهد ملوك الطوائف •

والمهم أنه بعد صدمته الثالثة فى الوزارة خلع السياسة وتفرع للعلم والتأليف ، والدرس والنشر ، والمناظرة والمجادلة • ورغم الصدمات والنكبات لم ينخلع من ولائه الأموى وظل حريصا على فكره السياسى رغم الحبس والمصادرة ، والنفى والطرء « فعندما اضطر ابن حزم لهجرة الجزيرة ، لم يجد أحدا من ملوك الطوائف برغب فى استضافته لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضا . فقد ظل متمسكا بشرعية الخلافة الأموية ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لا صلة لها بالواقع • • لهذا ذم ملوك الطوائف جميعهم فى

(١) لطفى عبد البديع . الاسلام فى اسبانيا . مكتبة النهضة مصر . — الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ١٠

(٢) عبد الرحمن الحجى . التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة — دار القلم . دمشق — بيروت ١٩٧٦ ، ص ١١٥ — ١١٦ .

رسالته « التلخيص لوجوه التخليص » لهما من مدبر مدينة أو حصن في أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، الا محارب لله ورسوله وساع في الأرض بفساد .. ونحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من المسلمين يحملونهم أسارى الى بلادهم .. وربما أعطوهم المدن والقلاع دأوا ، فأخلوها من الاسلام ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفا من سيوفه » (١) .

وهكذا عاش ابن حزم معيشة المفكر الملتزم بفكر سياسى معين ، وغير المتنازل عن أهدافه ومصادره فتحمل المشقة والعسرى ، بعد النعمة واليسرى .. فبعد ولادته في القصور ، وتربيته في حضن الحرير والجوارى . طوف بالبلاد ، وجال بالعواصم مشبها عالمه تشبيها دقيقا : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل ، وهى تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى !! » .

ورغم أنه في منتصف الثلاثينيات من عمره الا أن النكبات والصدمات جعلته يسطر في نهاية « طوق الحمامة » :

« أنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مبصر بما نحن ليه من نبو الديار ، والخلاء من الأوطان وتغير الزمان ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد وذهاب المال والجاء ، والفسكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع الى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار لا جعلنا الله من الشاكين الا اليه .. » (٢) .

وربما كان الانحسار السياسى ، والاعتكاف المفروض لفرصة طيبة ، فانصرف للدرس وخلص للتأليف ، وهذا ما كان يقدر عليه لو ظل مشغولا بالسياسة ، مسئولاً عن الوزارة .

(١) الطاهر مكي . دراسات عن ابن حزم .. مرجع سابق ،

ص ٩٥ .

(٢) ابن حزم — طوق الحمامة — مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

ورغم أن البعض يقول أنه نبذ الوزارة ، إلا أن الواضح أن الوزارة نبذته واضطر لتركها. اضطرارا « خفي المرة الأولى عندما كان وزيرا الى جانب المرتضى ، وقع أسيرا ، وهزم جيش المرتضى » .

وفي المرة الثانية انتهت وزارته التي لم تدم أكثر من سبعة وأربعين يوما بالسجن . . أما ما قيل من وزارته الثالثة في زمن «المعتمد» فيظهر أن ابن حزم رأى في استخلاف المعتمد مهزلة منطقية على مأساة « (١) » .

ورغم جهده وبحثه ، وعلمه وفنه ، كان يشعر بأنه مغبون الحق ، مضطهد الجانب ولا شك أن سجنه وتشريده كان دليلا على ذلك ، ثم الأخطر والأهم من ذلك أن كتبه حرق وأفكاره صودرت من هنا كان ينشد قائلا :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولا شك أن هذه النشأة والثقافة تركت بصماتها واضحة على إنتاجه وجهوده ، وهذا ما سيتضح في النقطة التالية . .

(١) عبد الكريم خليفة — ابن حزم الاندلسي — مرجع سابق ص ٦٣

الانتاج والجهود

تشير المراجع الى أنه خلال فترة نشاطه وانتاجه التي لم تتزد عن خمسين عاما تقريبا - كتب ما يربو على ثمانين ألف صفحة فنيما يزيد عن أربعمائة رسالة ١١

وإذا كان الرقم يبدو مذهلا وكبيرا ، فلعل به شيئا من المبالغة وقليلًا من التجاوز . الا أن كلمة رسالة قد تنصرف الى كتيب صغير، أو ضميمة من الضمائم ولا تعنى الكتاب الكبير أو المؤلف الضخم .

وكما سبق القول فقد منعت كتب ابن حزم وحرقت ، ولا شك أن بعضا منها فقد أثناء هذه الحملات الا أنه ترك وراءه غيضا هائلا من العلوم والفنون .

وفي رسالة « ابراهيم حربية » تصنيف لانتاج ابن حزم موزع على ثلاثة أقسام :

كتب فلسفية وكلامية .

وكتب شرعية وفقهية .

وكتب تاريخية وسياسية وأخلاقية (١) .

وفي رسالة « عبد الله بن عبد الله الزايد » سرد لقائمة مؤلفات ابن حزم استغرقت ثلاث عشرة صفحة (٢) .

وفي كتاب الدكتور عبد الكريم خليفة حصر لبعض مؤلفاته من كتب ورسائل وصل عددها الى أربع وخمسين ، ترجم بعضها الى

(١) ابراهيم محمد ابراهيم حربية - القيمة العلمية لمؤلفات ابن حزم للرد على اليهودية والنصرانية - مرجع سابق ، ص ٨٨ - ١٠٨ .
(٢) عبد الله الزايد - ابن حزم أصوليا - مرجع سابق ، ص ٤٨ - ٦١ .

الاسبانية ، ولعل أشهر كتبه التي ترجمت إليها « الفصل في الملل والأهواء والنحل » (١) .

وواقع الأمر أن التوسع والتعمق كان سمة للعصر ، فالقرن الرابع والخامس الهجريين أزهى عصور الأندلس ثقافيا ومعرفيا ، ولم يكن ابن حزم بذلك وحيد عصره ولا فريد زمانه بل ابن قرطبة البار ، وثمره الأندلس الناضجة . فقرطبة ما كانت توظف الصغار في محالها الا بعد انتقان القراءة والكتابة ، وكانت تزدهى بقصور أمرائها وخلفائها ، ومكتبات أثريائها وعلمائها لهذا أنجبت الكثير من الشوامخ والنوابغ من هنا قيل عنها :

بأربع غاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة البوادي وجامعها

هاتان شنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شيء وهو رابعها

فهنا تكتمل مظاهر الحضارة المادية مع المعنوية ، وتتعانق العمارة مع الفن والعلم ، والأدب مع الثقافة : فالجامع الكبير معقل العلم ومجلس العلماء والمشايخ ، ومقصد الطلاب والباحثين . .

وقنطرة البوادي رمز للجمال والانتقان ، والشاعرية والحسن . .

وضاحية أو مدينة الزهراء حيث تربى ابن حزم في قصر أبيه
وبجوار قصر المنصور حيث الرفاهية والنعيم ، والثراء والبذخ . .

وأخيرا العلم الذي ازدانت به قرطبة ، وعلا به كعبها ، وصارت قبلة للنظارين ومرادا للباحثين .

(١) عبد الكريم خليفة — ابن حزم الأندلسي — مرجع سابق .
ص ١٢٨ — ١٣٦ .

في مثل هذا التنوع والتعدد ، لم يكن غريبا أن ينتج ابن حزم
انتاجه اثر ، بعمقه الواغر ، واحاطته الشاملة .

وحتى او كان ما قدمه يقتصر على التراث الباقي المعروف
والمطبوع - فهذا يكفي وزيادة . . . فكتابة الفصل في المال والأهوال
والنحل . . . وكتابه المحلى في الفقه موسوعة ضخمة تضم خلاصة فقهه
الظاهري . . . وكتابه في ابطال القياس والرأى والاستحسان تأكيد
لنهجه الظاهري وشرح وافر له .

وأما كتبه في الأديان المقارنة فأشهرها الفصل ، ثم تأتي رسالته
الرد على ابن النعريلة اليهودي ، ورسالة أخرى في اظهار تبديل اليهودي
والنصاري للتوراة والانجيل .

وله كتب في المنطق أشهرها التقريب لحد المنطق والمدخل اليه .

وبالإضافة الى ذلك فله انتاج واغر في السيرة منها جوامع السيرة .
ومجمل فتوح الاسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما في الأدب فرسائله وكتبه عديدة من أشهرها طوق الحمامة ،
وجمهرة أنساب العرب ، ورسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها ، والرد
على ابن الاهليلي في شعر المتنبي .

وفي الأخلاق له كتابه المشهور الأخلاق والسير في مداواة
النفوس . . وفي شئون التربية والتعليم له رسالة مراتب العلوم
بالإضافة الى ما سجله في سائر كتبه من نبذ وتعليقات حول العلم
وفضله ، وحضور مجالس العلم وشروطها ، ومداواة الأخلاق
الفاسدة ، والتربية الخلقية ، والحرية ومفهومها ، ونظرتة للمعرفة
وأساليبها ، وتحليله للانسان وطبيعته . . . الخ .

بطبيعة الحال معظم ما كتبه في الفقه شرح لمذهبه ورد على
معتزليه ، ثم تأتي بعد ذلك اهتمامات منتتالية ، ودوائر فكر متكاملة .

ولا ننسى أنه كان شاعرا موهوبا ومناضلا صلبا •

ومسألة الصلابة في الرأي والتمسك بوجهة النظر أوضح ما تكون
عند ابن حزم :

من هنا دخل في مناظرات ومجادلات مع المخالفين لذهبه من
المسلمين ، وبحكم موقع الأندلس وقربها من عواصم المسيحيين وامثالها
باليهود والنصارى دخل معهم في معارك حامية الوطيس وكتب عنهم
بما يكشف عن عمق قراءته لهم وعمق تفاعله مع طريقة حياتهم •

والصلابة والتمسك بالرأى أوقعته في كثير من المزالق والمشكلات
ومع ذلك فقد أصر عليها « وانى لا أبالى فيما أعتقده حقا عن مخالفة
من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وانى لا أبالى موافقة
أهل بلادى في كثير من زعيمهم الذى قد تعودوا لغير معنى ، فهذه الخصلة
مندی من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها .. » (١) •

وواضح أنه قد اعتبر من أكبر فضائله — التى لا مثيل لها —
أن يخالف من يخالف بدون حياء أو خجل ، أو تراجع وانسحاب ، حتى
لو كان المخالفون جميع أهل الأرض !!

مثل هذا التطرف من ابن حزم يعبر عن ثقته المبالغ فيها واحساسه
بعلو كعبه وسلامة موقفه • ولا شك أن به قد درا من الغرور ومشاعر
العظمة ، وتضخما في مفهوم الذات وثقة زائدة عن الحد •

وقد سبق القول بأن خفقانا في القلب أصابه في صغره ، والتهابا
في طحاله ألم به قرب منتصف حياته ، وفقدانا للذاكرة عصف به فترة
من الزمن ، كل ذلك بالاضافة للمحن والأحن ، النكبات والهزات التى
طاردت وطردته .. ورغم كل ذلك لم تلن عريكته ، بل زاد صلابته

(١) ابن حزم — الاخلاق والسير — مرجع سابق ، ص ١٠٣

وتطرفها ، وظل نائرا على الدوام ، مبشرا بمذهبه الظاهري ، مخالف للامذاهب الأخرى ، رادا على اليهود والنصارى .

من هنا يقول شيخنا محمد أبو زهرة أن الزعازع السياسية ، والنيران التي اكتوى بنارها ابن حزم كانت سببا لكمال تربيته ، وارهاف ارادته ، وتقوية عزيمته . لهماق حلو الحياة ومرها ، فزاد من صلابة عوده ، وتقوية نفسه . ومن كثرة النضال والنزال ، الاحتدام والصراع زادت مداركه احتداما ، حتى أنه ليذكر أن أكثر تأليفه وتصنيفه كان نتيجة لذلك الاحتدام ، ولهذا الاصطدام (١) .

ومثل هذا الاضطراب والازدواج ، والاحتدام والصراع أسهم في تشكيل شخصيته وتطبيع نفسيته من هنا أدرك بعض المستشرقين الأسباب ، مثل غرسيه غومث — هذا التلاقى في الأضداد : من ازدواجية الصوت عنده ، وتجاوز اللطف والخشونة ، والرقه والعنف ، والنبيل والعامية ، دون أن يذوب أحدها في الآخر (٢) .

بطبيعة الحال حاول « غومث » أن يستنتج من ذلك أن ابن حزم أسباني الجذور والشخصية ، والمزاج والتكوين لأن هذه الأضداد والازدواجية شيء فطري في الطبيعة الأسبانية .

وبصرف النظر عن حجة « غرسيه غومث » وما فيها من نظرية عرقية ، فإن الأضداد والتناقضات مر بها كثير من المفكرين والفلاسفة ، وأسهمت في تشكيل الشخصية والسلوك ، والفكر والانتاج وليس ذلك بخاصية مميزة للأسبان القدامى أو المحدثين .

مجمل القول أن ابن حزم — مثلما قال بعض أصدقائه — « أوتى العلم كله ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم » !!

(١) محمد أبو زهرة — ابن حزم — مرجع سابق ، ص ١٥٤ — ١٥٦ .

(٢) مقدمة الدكتور الطاهر مكي لكتاب ابن حزم — الاخلاق والسير ،

لعل هذه العبارة على ايجازها توضح كيف أنه لم يستمع التوافق والتعايش ، لأنه لم يقبل التنازل أو التفاوض ، وكان يرد على معارضيهِ بردود عنيفة جارحة ، ليزداد التطرف من الناحيتين :

ناحية الخصوم والمعارضين ، ومن ناحيته هو * زادوا من الهجوم عليه ، فزاد تطرفا وحدة مما أوقعه في كثير من المشكلات والحساسيات .

الانحسار والوفاة

بعد أن طوف ابن حزم بالأندلس ، لجأ الى أهريقيا وأقام بالقيروان سنوات وسنوات يؤلف ويجهد ، ويجلس للناس ويناظر المخالفين *

وبعد سنوات ضاق به فقهاء القيروان مثلما ضاق به فقهاء الأندلس * وهكذا تنقل ابن حزم بين قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة يناظر ويجادل ، يعاند ويعارض ، المسلمين وغير المسلمين * عاند الملوك والأمراء ولواء لبنى أمية ، وناظر الأشاعرة والفقهاء التزاما بالظاهرية ، ورد على اليهود والنصارى تمسكا بالاسلام * ولم يكف عن هجومه ودفاعه نثرا وشعرا * ولهذا انتقم منه خصومه حيا وميتا :

حيا باحراق كتبه ومنع مذهبه وملاحقته من مكان الى آخر *

وميتا بتلويث سمعته وعدم نشر إنتاجه والمصادرة على علمه وجهده *

ولم يزد العناد الا عنادا ، ولم يزد التطرف الا تطرفا مع مزيد من الثقة بنفسه والاستعلاء برأيه *

وعندما عاد الى أندلسه اضطر للاقامة في القرية التي وفد منها جده الى قرطبة فعاد الى منت لشم ، من وديان ولبة * وأمضى بقرية حياته في القرية الوادعة الهانئة يعيش مع أولاده في ضيعة ترتبها له أهله .

والمعروف أن ابن حزم كان مثل الفقيه الليث بن سعد يحرم
إيجار الأرض ، ويعترف فقط بالمزارعة .. ولقد كان الامام الليث
ينتفع بضياعه بالمزارعة ، ولم يكتف بذلك بل كان يوزع معظم نصيبه
على الفقراء وأهل العلم (١) .

ورغم أن الليث بن سعد استقطب اهتمام عصره وجمع الناس
من حوله ، ولم يتهمة أحد بالمروق والتطرف ، ولم تحرق كتبه ويمنع
مذهبه فإن ذلك حدث لابن حزم فسجن وطرده ، واضطر للهجرة
والانزواء .

وهكذا يمكن القول بأن ابن حزم عاش حياة زاخرة بالمحن
والمصائب ، لها هادئها ولا هادئته . تحداها في مطلع حياته بالسيف ،
كما رأينا على أبواب غرناطة ثم بالقلم والفكر طوال حياته .. وخلال
الرحلة الطويلة شقى بخصومه ، وشقى به هؤلاء الخصوم (٢) .

وقبيل وفاته بلور ابن حزم ملامح حياته ، واستطلع مستقبله بعد
الوفاة فأنشد قائلا :

كأنك بالزوار لى قد تناذروا
وقيل لهم أودى على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك
وكم أدمع تذرى وخد مخدد
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا
عن الأهل محمولا الى بطن ملحد

(١) عبد الرحمن الشرقاوى . ائمة الفقه التسعة — دار اقرا .
بيروت ١٩٨١ ، ص ١١٤ .
(٢) عبد الكريم خليفة — ابن حزم الاندلسى — مرجع سابق ،
ص ٨٥ — ٨٦ .

وأترك ما قد كنت مغتبطا به
وألقي الذي آنست دهرًا بمرسده
فوا راحتى ان كان زادى مقدما
ويا نصبى ان كنت لم أتزود

هذه صورة موجزة لحياة ابن حزم والتطورات الهامة فى حياته ،
والمؤثرات الأساسية على فكره ننتقل بعدها الى منهجه الذى تتميز به
ودافع عنه ، وجلب عليه المشكلات حيا وميتا ، داخل قرطبة وخارجها .

الفصل الثاني

المهج الظاهري

المجتهد المخطيء أفضل عند الله من المقلد المصيب ! !

ابن حزم الظاهري

بداية المذهب

لعل أول من أظهر القول بالظاهر الامام « أبو سليمان داود ابن علي بن خلف » البغدادي مقاما الاصبهاني نسبيا ، والمولود مع مطلع القرن الثالث « (١) » .

فبعد سنوات أمضاها في دراسة فقه الشافعية خرج عنه بدعوى أن المصادر الشرعية هي النصوص فقط ، فلا علم الا عن النص ، وأبطل بذلك القياس . لذلك اتجه الى السنة ينهل منها ، ويجد فيها السند والدليل . لذلك قيل بحق « كتب الامام داود مملوءة حديثا ، إلا أن فقهه فقه النصوص بشكل عام ، وفقه الحديث بشكل خاص » (٢) .

ويؤكد نفس الفكرة عشرات المؤلفين : قدامى ومحدثين ، مؤيدين ومعارضين ، شارحين ومعلقين ، ناقدين أو هادمين . ومن يطلب الاستزادة لمعليه مراجعة رسالة الدكتوراة المشار اليها في هامش سابق ، أو بضع مؤلفات عن تاريخ الفقه عامة ، والامام داود والفقه الظاهري خاصة .

وقد تكفى في هذه العجالة الاشارة الى أن المذهب الظاهري الداودي يقوم على « انكار القياس ، ويرى أن في القرآن والحديث ما يكفي لبيان الأحكام . فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة ، ومن ثم لقب صاحبه بالظاهري » .

وكان داود يرى أن القول بالقياس تشريع عقلي ، والدين الهى . ولو كان الدين بالعقل لجرت أحكام على خلاف ما أتى به الكتاب

(١) راجع : عارف خليل ابو عيد . الامام داود الظاهري واثره في الفقه الاسلامي . رسالة دكتوراة . جامعة الازهر كلية الشريعة والقانون ١٩٧٨ .

(٢) محمد ابو زهرة - ابن حزم - حبانة وعصره - آراؤه ومقته . دار الفكر العربي ١٩٥٤ ، ص ٢٦٥ .

والسنة ، فوجب أن نتقيد بظاهرهما ولا نبيح القياس الا اذا ورد نص بتحريم أو تحليل وبين فيه علته •• (١) .

أما اذا لم ينص على العلة فليس للمجتهد أن يقول بها من عنده ثم يقيس عليها فإلله يقول : « وما اختلفتم فيه من شيء فردوه الى الله » ولم يقل سبحانه وتعالى فردوه الى الرأي والقياس •• (٢) .

هكذا يبدأ المنهج الظاهري بوضوح وقوة ، حسم وقطع . وعبارات المذهب جميعها تتسم بالجدية والقطعية لا هوادة فيها أو توسط ، لا غموض فيها أو ابهام ••• وكيف يكون الابهام والمنهج قائما على « ظاهر النصوص » دون « باطن » أو « تأويل » ؟

ورغم رفض الامام « داود » الأخذ بالقياس والرأي ، الا أن العمل في القضاء فرض الاستعانة بأدوات مساعدة عندما لا تكفى مراجع الكتاب والسنة ، وهكذا وجد الامام نفسه مضطرا للأخذ بالرأي عند الضرورة • وفي هذه الحالة يسمى القياس « دليلا » وهذا ما يؤكده اختصاصي بقوله « لقد أكد ذلك أبو الفدا والماوردي من هنا نفهم أن داود أعطى القياس مكانا عند الحاجة الماسة الظاهرة وسماء دليلا . الأمر الذي رفضه ابن حزم من بعده » (٣) .

وهنا عشرات النصوص توضح رفض ابن حزم لاستخدام القياس . أو تفسيره الدليل بمعنى القياس « ظن قوم يجهلون أن قولنا بالدليل خروج عن النص والاجماع • وظن آخرون أن القياس والدليل واحد ، فأخطأوا في ظنهم أفحش خطأ •• » (٤) .

(١) أحمد حسن كحيل — النحو والفقه الدناغري — مجلة الدراسات الشرعية ، كلية الشريعة — الرياض — العدد السادس جمادى الآخرة ١٣٩٥ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٢) ابن حزم — الأحكام في أصول الأحكام — الجزء السادس ، ص ٥٣ .

(٣) علم حسن عبد القادر — نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي .

مرجع سابق ، ص ٢٨٤ .

(٤) ابن حزم — الأحكام في أصول الأحكام — الجزء الخامس ،

ص ١٠٥ .

ومن المؤكد أن هناك عشرات المؤلفين والمصنفين كشفوا عن معاني الظاهرية وشيوخها ، من ذلك ما قاله ابن خلدون في مقدمته :

« الظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع ، وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة الى النص ، لأن النص على العلة نفى على الحكم في جميع محالها .. » (١) .

وبعد سطور قليلة وفي المقدمة يردف ابن خلدون :

« ثم درس مذهب أهل الظاهر في أيامنا بدروس أئمنته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب المجلدة . وربما يعكف كثير من الطلاب على مراجعة كتبهم فلا يخلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور وربما عسد بهذه البدعة من أهل النحل . وقد فعل ذلك ابن حزم على علو رتبته في حفظ الحديث فصار الى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه وخالف أمامهم داود ، وتعرض لكثير من أئمة المسلمين ، فنقم الناس عليه ، وأوسعوا كتبه استهجانا واستنكارا ، وتلقوا كتبه بالاغفال والترك ، حتى أنها ليحصر بيعها ، وربما تمزق بعض الأحيان .. » (٢) .

والواضح أن ابن خلدون لا يتحمل أو يحتمل الظاهرية ويصفها بالبدعة والانتحال ، الا أن الشيء الغريب أنه يتصور أن مجرد مراجعة كتبها هو الذي أزاغ بصر ابن حزم !! فمع أن ابن حزم متمكن من الحديث ، الا أن مراجعته لكتب الظاهرية أفسدت عقله ، وأزاغت بصره ، وجعلته ظاهريا كسائر الظاهرية !!

وهذه حيلة كثيرا ما ترد لصرف الناس عن قراءة كتب معينة ، فالقراءة فيها سوف تزيغ البصر ، وتذهب بالانتران ، وتفقد الاعتدال ..

(١) ابن خلدون - المقدمة - الطبعة الخامسة - دار الكتاب العربي - بيروت ، ص ٤٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

لكن هل يتصور أن مجرد مطالعة ابن حزم لكتب الظاهرية قد جعلته ظاهريا ؟ المؤكد أن ذلك محال ، لجميع الفقهاء قرأوا كتب الظاهرية للرد عليها أو الطعن فيها ، أو للحذر منها . فما هو بصحيح أن كل قارئ وفقيه تحول للظاهرية لمجرد قراءة كتبهم بل على العكس فقد تؤدي القراءة والتعمق الى مزيد من الهجوم والنقد .

ولهذا يسدو ابن خلدون غير موثق في عبارته السابقة فيما يتعلق بسبب تحرك ابن حزم من الشافعية للظاهرية .

ومن بين المؤلفات التي كتبت عن الظاهرية دائرة المعارف الاسلامية :

« فالظاهرية مذهب يأخذ الشريعة بظاهر لفظ القرآن والسنة ، وهو بعد يزيد من حيث غرور الفقه في عدد القواعد المفصلة المتباينة . وأهم من هذا أثره في أصول الفقه ، فقد توسع كثيرا في تنميتها وتوضيحها بإنكاره المتشدد للرأى والقياس والاستصحاب (١) ، والاستحسان (٢) ، والتقليد (٣) ، والذرائع (٤) .

(١) يقصد بالاستصحاب عند ابن حزم بقاء حكم الأصل الثابت بالنصوص حتى يقوم الدليل منهما على التغيير . لذلك يقول في الأحكام : إذا ورد النص ، ثم ادعى مدع أن ذلك الحكم قد انتقل أو بطل ، فعلى مدعى انتقال الحكم من أجل ذلك أن يأتي ببرهان من نص على أن ذلك الحكم قد انتقل أو بطل ، فإن جاء به صح قوله ، وإن لم يأت به فهو مبطل فيما ادعى من ذلك .

(٢) يقصد بالاستحسان عند ابن حزم باب من الفقه غير منضبط ، فما يستحسنه فقيه قد لا يستحسنه آخر فتضطرب الأحكام ، ولا تنضبط الشريعة . فالاستحسان شطط في الاجتهاد ، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأزمان . فما يعده حسنا ناس ، يعده قبيحا آخرون ، وما يعده مصلحة ناس يعده آخرون مضره . وبهذا يعتبر ابن حزم أن الاستحسان حكم بالهوى والشهوة .

(٣) يستنكر ابن حزم الاجتهاد عن طريق الذرائع ، لأن ذلك باب من أبواب الرأى . وقد استنكر الرأى بكل شعبه . والأصل في الذرائع أن الشارع إذا كلف العباد أمرا ، فكل ما يتعين وسيلة له مطلوب بطله ، وإذا نهى عن أمر ، فكل ما يؤدي الى الوقوع فيه حرام أيضا . إلا أن ابن حزم أنكر ذلك كما أنكر ما قبله من مصطلحات .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية . المجلد الخامس عشر - طبعة طهران ، ص ٤٠٩ .

« مجمل القول أن الظاهرية أعلوا من شأن النص واللفظ من هنا قال ابن حزم :

« لا سبيل الى معرفة شيء من أحكام الديانة إلا من القرآن ، والسنة ، والاجماع والدليل وهي كلها راجعة الى النص » (١) .

اذن هناك ترادف بين النص والظاهر . « فالنصن هو اللفظ الوارد في القرآن أو السنة ، المستدل به على حكم الأشياء ، وهو الظاهر نفسه » (٢) .

وقد أفاض الفقهاء في دراسة أسباب نشأة المذهب والعوامل التي ساعدت على نموه . من هنا كتب لنا أحد أساتذة الفقه المعاصرين مؤكدا للصلة المباشرة والعلاقة الأكيدة بين أهل الحديث وأهل الظاهر :

« أسهم المحدثون بنصيب واخر في نشأة المذهب الظاهري ويمكن ايجاز تأثيرهم فيما يلي :

— أهل الظاهر محدثون ، من المحدثين انبثقوا ، وعلى أيديهم تخرجوا . وأمامهم أبو داود تلقى علمه على علماء المحدثين في عصره . ولهذا يصرح ابن حزم بأن أصحاب الظاهر من أهل الحديث ، أشد أتباعا وموافقة للصحابة رضوان الله عليهم .

— أهدى المحدثون لأهل الظاهر المادة التي يعتمدون عليها في فقههم .

— كراهية المحدثين للقياس وتحذيرهم من استعماله الا عند الضرورة مما مهد للظاهرية انكار القياس . لهذا كان ابن حنبل يفضل ضعيف الحديث على الرأي ، وقد سلك ابن حزم مسلكه .

(١) ابن حزم . الأحكام في أصول الأحكام — الجزء الأول ،

ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

— المحدثون هم الذين مهدوا لنشأة المذهب الظاهري في المغرب
على يد بقى بن مخلد وغيره عندما عاد من المشرق متأثرا
بالمحدثين ناشرا الظاهرية مرسخا قواعدها » (١) .

بذلك يمكن القول بأن الفقه الظاهري يأخذ بظاهر اللفظ في الأوامر
والنواهي ، لا يؤولها ولا يبعد عنها . هالنص هو المحور ، والحجة
مقصورة عليه . وبذلك فقد اختلفوا نسبيا عن المذاهب الأربعة .

(١) عبد المجيد محمود عبد المجيب . الامجديات الفقهية عند اصحاب
الحدِيث في القرن الثالث الهجري . دار الوفاء للطباعة ١٩٧٩ ،
ص ٢٥٠ — ٢٥٦ .

اختلاف المنهج عن سائر المناهج

الواضح أن الظاهرية تختلف في منهجها عن المذاهب الأربعة ،
لهذا عن أنها تفيض لكل المناهج الباطنية ، وما تتطلبه من تسليم
بإمامة ، والفتراض لرموز ، وإقرار بأسرار •

واختلاف منهج الظاهرية عن منهج سائر الأئمة الأربعة ، لابد أن
يصاحبه اختلاف في غشوع وأحكام ، ويمكن مراجعة عشرات الكتب
المختصة بالفقه وأصوله ، والمذاهب تاريخاً ومقارنة •

وتكفى إشارة الى أن الأئمة الأربعة يعتمدون في استنباطهم على
الكتاب والسنة والاجماع والرأى ، ثم يختلفون في الرأى بين مضيق
وموسع ، وفي ذلك يقول أحد عمد الفقه المعاصرين :

« الشافعى يقصر الرأى على القياس لا يتجاوزه الى غيره • •

في حين يفتح أبو حنيفة الباب للاستحسان والعرف بجوار القياس ••

أما مالك فيفتح الباب للمصالح المرسلة وسد الذرائع ، وبذلك
يفتح للفقه معيناً لا ينضب ، وينهج ابن حنبل منهاجاً قريباً من مالك ،
الا أنه جاء في عهد كانت المجموعات الفقهية المأثورة والمسجلة مغنية له
عن أعمال الرأى في كثير من الأحوال •

أما ابن حزم فقد اعتمد على الكتاب والسنة والاجماع فقط ،
بل انه يصرح بأنه لا يصح لأحد أن يقلد أحداً ، ولو كان صحابياً (١) •

لهذا كان الفقهاء الأربعة يعتبرون القياس من الأمور البدئية ،
فإن الظاهرية لا يعطلون النص ويكتفون بأخذ الحكم منه • أى الاختصار

(١) محمد أبو زهرة • ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٢٦٢ •

على ظاهر الكتاب والسنة ، بدون اعتماد على نصوص معللة ، بحيث تعرف علتها ، ويقاس عليها غيرها •

لهذا قيل عن ابن حزم أنه مجتهد مطلق لعدم انتمائه الى أحد الأئمة المجتهدين ، وإنما مذهبه الأخذ من ظاهر النصوص ، وحتى كونه استفاد من مذهب داود فإن ذلك لا يمنع كونه مجتهدا مطلقا (١) •

كما أكد «عبد الله الزايد» في رسالته بإجماع عند ابن حزم يعنى إجماع الصحابة قبل تفرقهم وخروجهم من المدينة ، ولايم أن يكون إجماعهم على نص ، أما إجماع الأمة فلا يتصور إلا في الضروريات الدينية التي من أسلم كان ملتزما بها بمقتضى اسلامه (٢) •

أما القياسي فقد أنكره تماما لأنه لا يجوز أن يقاس على منصوص العلة كغير منصوصها • ولهذا فقد خالف الجمهور من المسلمين بما فيهم جماعة من أهل الظاهر (٤) •

والغريب في الأمر أن الشيخ عبد الله الزايد يدافع دفاعا مستميتا عن ابن حزم ، ويحاول إيجاد مبرر لسقطاته وهفواته :

« فإذا كان أبو محمد قد أخطأ في بعض اجتهاداته فقبله أئمة كبار قد أخطأوا ، وكذلك بعده من أخطأ وسيخطيء ، فهل خطأ أي أحد مبرر للأعراض عن الاستفادة منه ؟ » •

بطبيعة الحال الخطأ لا يبرر الخطأ ، كما أن نسب الأخطاء تختلف وتتباين ونفس الشيء يحدث من الدكتور الطاهر مكي فاعجابه بابن حزم أخذ به كل مأخذ فيبرر له ويجد له المخرج والمنفذ :

(١) عبد الله الزايد ، ابن حزم أصوليا — مرجع سابق .
ص ٧٣ — ٧٥ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣٨ •

(٣) المرجع السابق . ص ٦٣٨ — ٦٣٩ •

« فالحدة التي اشتهر بها ابن حزم ، والتي تضل الى حد التسفيه والتكفير والتفسيق في أحياء كثيرة ، لأراها مما يعاب عليه جملة ، فهي تأتي غالبا في موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائما من المؤمن بها الى صوت مرتفع ، لتوقظ نائما ، وتنبه غافلا .. » (١) .

وعلى العكس من الدكتور الزايد ، والدكتور مكي فهناك كثير من القدامى والمعاصرين يعترضون عليه جملة وتفصيلا ، منهجا وسلوكا . وهكذا كان ابن حزم متطرفا في حياته .. وصاحبه التطرف حتى بعد مماته :

فالمؤيدون يناصرونه بكل حجة وذريعة ..

والمخالفون ينكرون له أى علم وفضيلة !!

وهكذا عاش الرجل حياة الأضداد من نعيم وشقاء ، وزارة ثم مطاردة . وحتى عندما مات ظل الصراع حوله محترقا بين منصف ومجحف . مؤيد ومعارض .

بطبيعة الحال ما أكدته الظاهرية في منهجها وتطبيقها تعرض لنقد وملاحظة : وبخاصة أن شخصية ابن حزم ما استطاعت كسب الأعوان والخلصاء . كما أنه أثار عليه الفقهاء والأمراء .

ومن أهم الانتقادات التي توجه للمذهب الظاهري ما أكدته أحد أساتذة الفقه بقوله :

« الالتزام باطراد قاعدة مذهب ما ، والتطرف في تطبيق هذه القواعد دون مراعاة للجزئيات والظروف المحيطة بها أهم نقد يوجه لاهل الظاهر وسواهم لأن المهم في النصوص هو الاجتهاد في معرفة

(١) من مقدمة الدكتور الطاهر مكي لكتاب الاخلاق والسير . مرجع سابق ، ص ٣١ .

مراد الشارع منها ، وتعيين ذلك قد يقصر عنه اللفظ ويعين على فهمه عوامل أخرى من القرائن الخاصة » (١) .

ويستشهد صاحب النص السابق بقول ابن القيم عندما أوضح حسنات وسيئات أهل الظاهر :

« فقد أحسنوا في اعتنائهم بالنصوص ، ونصرها والمحافظة عليها ، وعدم تقديم غيرها ، وأحسنوا في رد الأقيسة الباطلة ، وفي بيان تناقض أهلها . . لكنهم أخطأوا في رد القياس الصحيح ، وفي تقصيرهم في فهم النصوص ، وفي تحميل الاستصحاب لموق ما يستحق ، وفي اعتقادهم بأن معاملات المسلمين كلها على البطلان حتى يقوم دليل على الصحة ، فإذا لم يقيم استصحابوا بطلانها » (٢) .

تراجع المذهب في المشرق

يقال ان المذهب الظاهري كان منتشرا في المشرق الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع ، الى أن جاء القاضي « ابن أبي يعلى » فحزح المذهب عن مكانه ، وجعل المذهب الحنبلي يحتل موقعه في خريطة الفقه الاسلامي المشرقي .

ومن المؤكد أن هناك أسبابا أخرى تضافرت لرحضة الظاهرية منها :

أن الخلفاء والأمراء كانوا يجرون الجرايات ويهبون الهبات لطائفة من علماء المذاهب الأربعة لا يشترك فيها غيرهم سواء كانوا من أصحاب الاجتهاد أم ضد الاجتهاد .

(١) عبيد المجيد محمود عبد المجيد . الاتجاهات الفقهية عند اصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري — مرجع سابق ، ص ١٠٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

ومعنى هذا أن السلطة — قديما وحديثا — بتنظيمها وتمويلها ، سيفها وذهبها كانت وراء المذاهب الأربعة ، أما غير ذلك من مذاهب سنية فكان ضعيف الحماية ، قليل المساندة • وانتهى الأمر في أوائل القرن السابع بأمر الخليفة المستعصم علماء فقه المستنصرية بأن يقصروا دروسهم على أقوال الأئمة ولا يدرسوا كتابا من كتبهم هم لتلاميذهم •

وقبل البعض هذا الأمر ، واحتج الآخر ، فعادوهم الخليفة ، فأطاعوه « وجرى مثل ذلك في المدارس الكبرى فتضاءل شأن القائلين برأيهم في مسائل الفقه والأصول ، وكثر الاقبال على دروس المذاهب التي يتعلمها الطلاب في معاهد الدولة ، ومنهم يختار القضاة والعلمون • وخطباء المساجد وعمال الدواوين • » (١) •

ومعنى هذا أن سياسة الدولة فرضت نفسها :

• معاهدها ودروسها لا تعلم الا المذاهب الأربعة • •

• ووظائفها ومناصبها لا يتولاها الا أصحاب المذاهب الأربعة • •

• أما بقية المذاهب فعليها أن تتوارى وتختبئ وتراجع وتختفى •

وباصطلاح العصر ، فان سياسة « القوى العاملة » فرضت نفسها تعين المذهب بمذهب الدولة ، وتصرف النظر عن الدارس أو المذهب بمذهب مغاير ، ومن ثم لا بد أن ينتشر مذهب أو ينقرض آخر •

وسبب ثان لعدم انتشار الظاهرية يرجع الى أن أصحابها أنكروا القياس مما يخالف أصول الفقه عند الجمهور ، مما أثار هجوم العلماء المعاصرين لمنشأة الظاهرية ، أو التابعين لذلك • والمؤكد أن هؤلاء العلماء نفروا العامة من الظاهرية ، بالاضافة الى ذلك نسب لمؤسسها

(١) عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية . موسوعة العقاد الاسلامية — المجلد الخامس — دار الكتاب العربي ١٩٧١ ، ص ٩٣٣ — ٩٣٤ •

أنه قال بخلق القرآن بقوله « فأما الذى فى اللوح المحفوظ غير مخلوق ، وأما الذى بين الناس فمخلوق » •

والقول بخلق القرآن من جهة ، واشتجار المذهب بأحكام فقهية غير متعارف عليها نفرت العامة وصرفت الجمهور •

والعامة بطبيعتهم النفسية والمعرفية ، الفقهية والشرعية يقتدون برؤوس الدولة والفقهاء ففهم مستجيبون — فى الغالب — لتوجيهات السلطة وتعليماتها ، والأصوات وأسواطها ، ولعنائها وعذابها ، ولعيونها وسجونها • وصعود وهبوط المذاهب خير دليل ان فى المشرق أو المغرب ، وفى حالات كثيرة حرقت كتب الظاهرية اتباعا للمالكية ، ثم حرقت كتب المالكية اتباعا للظاهرية ، وهذا ما سيناقشه البحث عند معالجة المنهج بعد ابن حزم •

مجمال القول ، أن المذهب الظاهري جاء متأخرا بعد المذاهب الأربعة ولكن يسود « كان يجب أن يزيلها من طريقه أو يضعف من شأنها ، ولم يكن بين معتنقيه تلك القوة ، فاجتمع له ضعف من الذين اعتنقوه ، ومحاربة من العلماء ، وعدم وجود فراغ يملؤه » (١) •

تالى المذهب فى المغرب

عندما بدأ نجم المذهب الظاهري يخفت فى المشرق ، بدأ يتلاها فى المغرب :

فقد ارتحل عدد من علماء المغرب الى المشرق واقتبسوا الكثير أو القليل من الظاهرية ، وزرعوا بذورها فى الأندلس • ومن أشهرهم بقى بن مخلد ، وابن وضاح ، وتلميذهما قاسم بن أصبغ ، ثم تبعهم

(١) عارف أبو عيد • الامام داود الظاهري واثره فى الفقه الاسلامى — مرجع سابق ، ص ١٣ •

القاضي منذر بن سعيد البلوطي خطيب الأندلس المفوه ، وقاضي قرطبة المرموق (١) .

وجاء بعد منذر شيوخ تخصصوا في دراسة الفقه الظاهري منهم مسعود بن سليمان بن مفلت الذي تلقى عنه ابن حزم مباشرة ، وتعلمذ على يديه .

وهناك أسباب تفسر أسباب النقلة والانتقال ، فالمعروف أن المالكية كانت سائدة في الأندلس ، وكان ابن حزم منزهيا بها ، ثم انتقل الى الشافعية وأخيرا استقر بالظاهرية .

فما أسباب اقباله على الظاهرية واعتناقه لها ؟

تبدو الأسباب كثيرة ، ولعل أهمها يمكن بلورته في الثلاثة الآتية :

أولا :

أن المذهب نشأ في المشرق والمغرب مقاومة للباطنية بمدارسها المختلفة ، وهذا ما يؤكد العقاد « فالدعوة الفاطمية كانت على أقواها وأشيوعها في بلاد المغرب وكان ابن حزم أمويا شديداً للتعصب للدولة الأموية شديداً الإنكار على من يقاومونها من العلويين أو الفاطميين ، حتى قال بعضهم عنه أنه ناصب أي ممن يعادون شيعة أهل البيت ويناصبونهم العدااء » (٢) .

ومما يتدل على أن الظاهرية قامت أساسا لدخس الباطنية ان ابن حزم لا يبطل الاجتهاد ، بل يوجب على جميع المسلمين ، وانما

(١) راجع :

— محمد أبو زهرة . ابن حزم — حياته وعصره — مرجع سابق ، ص ٢٦٩ — ٢٧٤ .

— عبد الحليم عويس . ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري — دار الاعتصام ١٩٧٩ ، ص ٨٥ — ٨٧ .

(٢) عباس محمود العقاد . التفكير فريضة اسلامية — مرجع

سابق ، ص ٩٣٠ — ٩٣١ .

ينكر أن يختص به أمام واحد يفتى بعلم ينفرد به • من هنا يقول في الجزء الأول من المحلى :

« لا يحل لأحد أن يقلد أحدا لا حيا ولا ميتا ، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته ، فمن سأل عن دينه فانما يريد معرفة ما ألزمه الله عز وجل في هذا الدين ، ففرض عليه ان كان أجهل أهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل موضعه •• » (١) •

وتأكيدا لنفس الفكرة يقول ابن حزم :

« ان دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مشاحة فيه •• واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتف من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع أخص الناس به على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر أو الأسود ورعاة الغنم •• ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم اليه ، ولو كتم شيئا لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر •• » (٢) •

اذن السبب الأول — من وجهة نظر العقاد والكثيرين — لنشأة الظاهرية هو الرد على الباطنية المشرقية والمغربية •

وقد حاول البعض دحض وجهة النظر السابقة بدعوى أن الظاهرية نشأت قبل ظهور الباطنية وأنه لم يعرف لداود الظاهري اتصال أو مناقضة لعلام الباطنية ، وأن ابن حزم لم يشغل نفسه بالرد عليهم ، بل تعامل معهم كسائر الفرق الضالة التي كان يقاومها ، كما أن أصحاب المذاهب الأخرى السنية لو كان يعلمون أن الظاهرية رد فعل للباطنية لوقروها ودافعوا عنها ولما وقفوا منها موقف الرافض والمنأوى •• (٣) •

(١) ابن حزم • المحلى — الجزء الأول ، ص ٨٦ •

(٢) ابن حزم •

(٣) أبو عبد الرحمن بن عقيل • نظرات لاهثة — مطابع الشهري ، الرياض ١٣٩٦ ، ص ١٩ — ٣١ •

الا أن هذه التقديرات الأخيرة لابد من أخذها بقليل أو كثير
من حذر .

وهذا الحذر ليس مبرره الدفاع عن العقاد أو الهجوم على
ابن عقيل .

ولكن مبرره أن ابن عقيل — وهو كاتب سعودي معاصر —
ظاهري المذهب ، تمذهب به منذ ما يزيد عن عشرين عاما ، ويدافع عنه
دفاعا حاميا ، لهذا لابد من أخذ وجهة نظره بقليل أو كثير من الحذر .
كما أن أسلوب الكتابة الصحفية يغلب عليه ، بكل ما في هذا الأسلوب
من تعجل وتسرع ، وحماس وتدفق .

وبحكم كون ابن عقيل شاعرا وصحفيًا ففى أسلوبه شاعرية
الشاعر ، وشعارية الصحفي . وهو يحاول التشبه بشيخه ابن حزم
فى كثير من أساليب حياته وفنه ، أسلوبه ومعيشته ، ناهيك عن فكره
ومنهجه (١) .

وبصرف النظر عما اذا كانت الظاهرية مجرد رد فعل للباطنية
أم لها مبرراتها الخاصة ، فالذى لا شك فيه أنها رفض للباطنية بكل
صورها ودرجاتها ، ومذاهبها ودعاتها .

(١) بطبيعة الحال هذه قضية خطيرة .
فاذا أخذت عن كاتب متذهب بالظاهرية فى الفقه ، او الفرويدية فى علم
النفس او الماركسية فى الاقتصاد ، فلا شك أنه يكون متمكنا من القواعد
والاصول والجذور والنباع . الا أنه فى ذات الوقت يكون متأثرا ومقتنعا ،
مستسلما وخاضعا .
ومن النادر أن تجد مفكرا متذمبا يدرك نواقص وسلبيات مذهبه فهو
يدافع عن مذهبه دفاعا حارا ، او يقدمه بطريقة موجبة دون أن يدرك
ما فيه من شبهات ونواقص ، وتصور أو ظهور .
والعكس هو الصحيح .
فاذا أخذت عن كاتب معاد لمذهب فانه لا يرى الا النواقص والنقائص ،
والسلبيات والشبهات .
وكيف الطريق الى الموضوعية ؟ كيف الطريق الى التجرد من الذاتية ؟
مهمة صعبة لا يقدر عليها كل مفكر أو كاتب .

وواقع الأمر أن جميع المذاهب — فقهية وغير فقهية — في نموها وأفولها ، وصعودها وهبوطها ، وتقدمها وتراجعها ، ليست مجرد رد فعل ميكانيكى لمذاهب أخرى • بل هناك مبررات ومؤثرات ، وتفاعلات وعلاقات ، وصراعات وخلافات ، وتحديات واستجابات تثمر في النهاية الظاهرية وتثبت أركانها •

من هنا فلا يمكن الاقتصار على أن الظاهرية نشأت رادة على الباطنية فحسب بل لابد أن ثمة أسبابا أخرى ، وعوامل مغايرة •

ثانيا :

أن ابن حزم حاول عن طريق الفقه اصلاح الحكام والمحكومين •

فلقد سبر المجتمع الأندلسى بكل طبقاته ، وشهد المهازل التى جرت على مسرح السياسة ، وأروقة القصور ، وساحات الشوارع باسم العقيدة والشريعة • ولعل ذلك — وغيره — جعله مقتنعا بأن الموبقات والانحرافات انما وقعت فى غيبة الشريعة ، وفى تجاوز عن دلالتها الصريحة ، وتأويلها باسم القياس ، والاستحسان ، والتعليل •

من هنا دخل ابن حزم الى باب الفقه ليصلح الراعى والرعية ، واختار المذهب الظاهرى لأنه المذهب الذى يوجب الاجتهاد ، ويمنع التلاعب بالنصوص ، ويحقق غرضه من أقرب طريق (١) •

ويبدو هذا السبب فى حاجة الى مناقشة :

من المؤكد أن الفقه المالكى أو الشافعى يستطيع أن يصلح الراعى والرعية ، ولكن لماذا التجول من الشافعية الى الظاهرية ؟

لابد أن هناك أسبابا أخرى أعمق وأبعد ، وهذا ما سيكشفه السبب الثالث •

(١) عبد الحليم عويس "ابن حزم الأندلسى — مرجع سابق ، ص ٨٩ ،

ثالثا :

يكمل السبب السابق أن بعض الفقهاء استفادوا من ظروف القرن الخامس والسادس ، بالشرق أو المغرب ، وتحولوا الى مفسرين لتصرفات الحكام ، ومبررين لطغيانهم ، سعيًا وراء مناصبهم في عطايهم ، وخوفًا من بطشهم *

ولقد حدث ذلك في المشرق قبل وبعد القرن الخامس ، الا أنه كان في المغرب أوضح وأجلى ، وأكثر وأشيع *

وساعد على ذلك ملوك الطوائف بما في نظامهم من منافسات اشتعلت ومؤامرات دبرت ، ونزاعات أججت حتى أودت بهم ، وأطاحت بنظامهم *

لهذا لم يرحم ابن حزم بعض فقهاء عصره : — « فتواهم معدة ، وأقلامهم مشروعة ، يدعمون بها الطغاة خوفاً ، ويبررون لهم المظالم طمعا ، ويسبجون بحمد الحاكم ملقا ، ويشغلون بدعوة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة وفي هذا يقول ابن حزم :

فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرركم الفساق المنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم .. » (١) *

اذن وسط هذه الظروف وجد بعض الفقهاء الفرصة مواتية للأكل على كل مائدة ، والتقلب في خدمة كل قصر ، والطمع في كل عطاء ، والبحث عن الحماية والغطاء . وفي ذلك يقول عبد الله بن تيمنا « قد كان الفقهاء في الواقع ، في هذا العصر الذي ساد فيه الانحلال والفوضى

(١) الطاهر مكي . دراسات عن ابن حزم وكفاية طوق الضلالة — مكتبة وهبة — الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، ص ٩٥ .

الأخلاقية والاجتماعية ، أكبر عضد الأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم ، وتركية تصرفاتهم ، وابتزازهم الأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة ، ويتقلبون في خدمة كل قصر ، ليحرزوا المال والنفوذ ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص في ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . (١) .

وهذه الفكرة التي أشار إليها ابن حزم ثم عبد الله عنان ، أشار إليها مؤرخ ثالث عاصر الأحداث وواكب النكبات . .

ومن هنا يندد « أبو مروان حيان » بالتآلف بين الأمراء وبعض الفقهاء في تأييد الظلم ، وتبرير الفساد فكتب يقول :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين كالمح : منهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحتهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفين لدينا بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذودا عن الجماعة ، وجريا الى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتقية في صدقهم . » (٢) .

وهناك قصة توضح كيفية تصرف بعض الفقهاء تمسكا بالشرع ، في حين أن بعضهم فرط في كل شيء تمسكا بالمناصب .

وقد حدثت القصة بين الخليفة عبد الرحمن الناصر في القرن الرابع وفقهاء قرطبة المالكية فقد احتاج الى تعويض أرض أمام منزله كانت حبسا توضع فيها المخلقات وأرادها متنزها لنفسه .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق . ص ٤٢١ .

وعندما طلب من الفقهاء ، أن يعوضها بأحسن منها ، امتنعوا كلية
بناء على المذهب المالكي . .

فأرسل لهم بعض وزرائه للتهديد والوعيد فأصر الفقهاء وحدثت
مواجهة بينهم وبين الوزراء انتهت بمحاولة الخليفة استرضاءهم ،
فانصرفوا دون تنازل عن غتواهم .

الا أن « محمد بن يحيى بن لبابة » الفقيه المعزول عن القضاء
أراد استرضاء الخليفة فأرسل اليه قائلاً :

لو لم أكن معزولا ، لترخصت لمولانا ، وأفتيته بالجواز ، وناظرت
سائر الفقهاء بالحجة !! .

وعلى الفور أعاده الخليفة للقضاء فحكم له بجواز الاستيلاء على
الأرض مقابل تعويض بناء على المذهب الحنفى .

فلما عارضه بقية فقهاء المالكية قال لهم :

ألم تنزل بأحدكم ملمة بلغت بكم الى الأخذ بقول غير الامام
مالك ترخصا لأنفسكم ؟

قالوا : بلى : قال : فأمر المؤمنين أولى !! (١) .

هذه القصة — على طولها — توضح اختلاف مواقع الفقهاء
بعضهم يتمسك بالشرع طلبا للأخرة وبعضهم يتهاون في الشرع تمسكا
بالدنيا !!

ومثل هذا التفسير أغضب بعض أتقياء المسلمين في الماضي
والحاضر بدعوى أنه فكر مستشرقين ومبشرين ، أو دعاة تخريب وغزو
فكرى ، وحجتهم أن أى اتهام للفقهاء يعد اتهاما لقلب الاسلام

(١) محمد بن الحسين الثعالبي الفاسي . الفكر السامى في تاريخ
الفقه الاسلامى — الجزء الثانى — المكتبة العلمية — المدينة المنورة ١٩٧٧ ،
ص ١٤٤ .

(م ٦ — ابن حزم الاندلسى)

النابض ، وروحته المتدفقة ، ورجاله المخلصين •• وواقع الأمر أن النصوص السابقة لم تتعرض لجميع الفقهاء ، بل نددت بسلوك بعضهم أرضوا السلطان بصرف النظر عن القرآن ، واتبعوا مصلحتهم بغض النظر عن مصلحة المسلمين ، وتكسبوا بعلمهم بدلا من خدمة المسلمين به ••

ورغم حساسية الموضوع ، إلا أن شطرا من القضية يظل صحيحا — في الماضي والحاضر — وهذا ما سنتناقشه بعد قليل فقرة تالية •

مجمل القول ، أن هذا السبب الثالث يوضح أن القياس والاستحسان أسىء استخدامهما في القرنين الرابع والخامس ، سواء مع ملوك المغرب والأندلس ، أو أفريقيا وآسيا • من هنا أصر الظاهرية — وابن حزم على نحو خاص — على رفض القياس ، لصرف الناس عن فتاوى مصممة خصوصا لتبرير تصرفات خاطئة وأحكام جائرة ، وهي قضية مستمرة وجزء من مشكلة المثقفين مع السلطة ، سواء أكانوا فقهاء أم فلاسفة ، وسواء أكانت شرعية أم علمانية •

صراع السلطة والفقهاء

اتضح من السبب الثالث أن بعض المثقفين في الماضي والحاضر ، ولأغراض دنيوية ومصلحية وبصرف النظر عن حكم الشرع ومصلحة الجمهور ، خضعوا لمطالب السلطة وتباروا في كسب ودها : طمعا في مناصبها ، وخوفا من بطشها •

فذهب المعز وسيفه كانا وما زالا يطاردان المثقفين ويبتزان علمهم ، خدمة لمصالح مؤقتة ، وقرارات جائرة •

وهذه المشكلة ليست وليدة اليوم أو الأمس ، بل بذورها زرعت منذ عصر المواجهة بين أتقياء المدينة المنورة وحكام «دمشق» الدنيويين •

فالمواجهة بين أنتقاء المدينة والأمويين قديمة متجذرة ، والى اليوم تأخذ صوراً مختلفة ودرجات متباينة ليس فقط بين الفقهاء والحكومات العلمانية ، بل بينهم وبين الحكومات التى تحكم بالشرع وتتمسك بالكتاب والسنة !!

والى مثل هذه الجذور يشير باحث متخصص :

« نتيجة ظروف المواجهة بين أنتقاء المدينة والسلطات الأموية اضطر هؤلاء الأنتقاء الى تأسيس علم الفقه الذى يقوم على منهاج مثالى نظرى بمعنى ما يجب أن يكون عليه المسلم ، وليس بمعنى أنه غير ممكن التحقيق .. ولو لم تتغير الحالة السياسية هذا التغير الكبير فى العصر الأموى لساير الحال فى الحياة التشريعية على طريقة العصر السابق الذى كان فى الغالب مرتبطاً بالعمل قائماً عليه ، ولكن الانقلاب السياسى ، أنتج هذا الانقلاب التشريعى ، وهذه الثغرة التى كانت بين الأمويين وأهل المدينة . »

من هنا بدأ ينفصل التشريع عن الحياة ، ويسير علم الفقه والحديث فى اتجاه نظرى بعيداً عن الحياة العملية ، ويثمر من النظر والقول ، بعد أن كان يثمر من العمل والفعل » (١) .

بطبيعة الحال ، فارق كبير بين ثمرة العمل والتطبيق ، وثمرة النظر والتأمل ، فلو كان الحكم الإسلامى استمر محافظاً على طبيعته النقية لانصلح الحال ، واستقام الوضع .. ولكن كيف لمصالح الدنيا وأطماع الانسان أن تتوارى من أجل حاكمية الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن تطل برأسها تنافق وتناور ، وتخدع وتضل ، وتستجمع وتعاوى ، وتتبارى وتتكاثر تحقيقاً لمصالح الدنيا وأطماعها .

(١) على حسن عبد القادر . نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى — مرجع سابق ، ص ١١٤ .

وهكذا بانفصال السلطة السياسية عن المجتمع والحياة ، وظهور
حكام دنيويين أكثر منهم دينيين أبعد الفقه عن الحياة السياسية لأن
الحكام غلبوا المصلحة على الشرع ، وانقادوا للعرف والاجتهاد
المصلحة ، بدلا من القرآن والسنة والصحابة والتابعين •

وإذا كان ذلك هو الحال بعد أقل من ثلاثين عاما من انتقال
الرسول عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى ، فكيف كان الحال
في القرن الخامس الهجري ، وكيف هو الحال في القرن الخامس عشر ؟

لا بد أن المفارقة ازدادت ، والتباين اتسع بين ما ينبغي أن يكون
والقائم ، بين المثل الأعلى والواقع •

وزاد الطين بلة ما حدث أحيانا من تأجير لمناصب القضاء لمن يدفع
مقدما !! وهذا ما عرف في تاريخنا باسم ضمان القضاء « فبعض
الولاة كان يضمنون القضاء بمعنى أنهم يولونه من يضمن أن يدفع
مقدارا من المال كل سنة أو كل شهر • وأول من ضمن القضاء عبد الله
ابن أبي الشوارب سنة ٣٥٠ أيام معز الدولة بن بويه الذي سماه قاضي
القضاة في بغداد على أن يؤدي له مائتي ألف درهم سنويا !!

ثم صار ذلك أمرا مألوفا ، كما صاروا يضمنون الحسبة والشرطة ،
ومن هنا ابتداء خراب الفقه ، بل الاسلام ، ففساد الدين الطمع ،
وصلاحه الورع • • « (١) •

من هنا حاول البعض تفسير أسباب انصراف ابن حزم عن المذاهب
الأربعة وما فيها من قياس واستحسان ، الى الظاهرية بما فيها من
قرآن وسنة واجماع فقط دون فتح باب القياس والأدلة ، باعتبار أن
القياس قد هيا للبعض تفسير الظلم وتبرير الانحراف عن شرع الله •

(١) محمد بن الحسين الثعالبي الفاسي . الفكر السامي في تاريخ
الفقه الاسلامي — الجزء الثاني — مرجع سابق ، ص ١٤٢ •

وواقع الأمر أنه ليس هناك تناقض بين القول بأن بعض الفقهاء مالا السلطة ، وبعضهم تصدى لها فهذا هو الواقع الحى ، والتاريخ الحى .

فالذى لا شك فيه أنه ابان القرن الخامس ، والقرن الخامس عشر ، ما زال هناك نفر من الفقهاء يقبض على دينه كالقباض على الجمر ، ويتمسك بالشرع قبل تمسكه بالحياة ، وبدون استجابة للمصالح والتهديدات ، أو المضغوط والمزايدات .

من هنا تظهر قيمة رسالة ابن حزم « التلخيص لوجوه التخليص » وبها وصف لفتنة ملوك الطوائف وتصرفات أمرائهم « ان كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد . يشنون الغارات على أموال المسلمين ويبيحون لجندهم قطع الطريق ، يضربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله .

فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، الملبسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزيفون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

وتبدو عبارات ابن حزم القاطعة الحادة ، الجازمة اللازمة ، لا تنطبق فحسب على القرن الخامس ، بل تمتد الى الخامس عشر !

فكثير من حكام المسلمين يحكمون بأى شىء عدا الاسلام .

وكثير من حكام المسلمين لا هم لهم الا التسلط على المسلمين ، والتذلل لغيرهم .

وكثير من المشتغلين بالأمر الشرعية لا هم لهم الا تأييد السلطات ومباركة القرارات طالما أن المناصب تقدم ، والعطايا تجزل .

ويداهة فلا بد أن تحمل السلطات للفقهاء الأنقياء ، والعلماء
الأنقياء ، كان — وما زال — تحملا محدودا ، وفي أضيق الحدود • بل
سرعان ما تزور عنهم ، تبطش تارة وتهدد تارة ، ترج بهم في سجون ،
أو تجبرهم على النفي ، وإذا استعصى الأمر تعلقهم على أعمدة المشانق •
اذن الصراع كان — وما زال — موجودا ، ولعل هذا كان أحد
أسباب انصراف ابن حزم عن فقه القياس الى فقه الظاهر •
وليس ذلك باتهام لفقه القياس ، أو تأييد لفقه الظاهر •

فقد كان بوسع ابن حزم وغيره أن يستثمروا في القياس ، ويواجهوا
الحكام ويوجهوا الفقهاء •• فما كل فقهاء القياس كانوا تبعا للسلطة ،
أو مبررين لقراراتها ، وما كل فقهاء الظاهرية أصبحوا أبطالا ، وخذلوا
مناضلين •

لهذا فلا بد أن الأسباب الثلاثة السابقة : مقاومة الباطنية ،
واصلاح الراعى والراعية ، والابتعاد عن التبرير والتبرير لابد أنها
تفاعلت معا يضاف اليها عوامل أخرى ثقافية وسياسية ، شخصية
ومذهبية ، تعليمية وعقلية بحيث بلورت في النهاية الظاهرية عند ابن
حزم ، وجعلته يتسلل من الشافعية ويلتصق بالظاهرية •

ظاهرية ابن حزم

خالف ابن حزم شيخه أبا داود في كثير من المسائل الأساسية ،
ولهذا قال عنه :

« أبو سليمان داود شيخ من شيوخى ان أصاب الحق فنحن معه
اتباعا للحق ، وان أخطأ اعتذرنا له واتبعنا الحق حيث فهمناه •• » •

وهذه العبارة تذكرنا بعبارة أرسطو عن أستاذه ، أفلاطون ،
والأهم من ذلك أنها تكشف عن منهج الظاهرية بصفة عامة ، وظاهرية
ابن حزم بصفة خاصة •

فاذا كان المذهب يرفض تقليد أحد ، ولو كان صحابيا ، فكيف له أن يقلد أستاذا أو شيخا ؟

ولهذا كم كان دقيقا قول البعض أن ظاهرية ابن حزم منهجية لا مذهبية وأن له نظراته الخاصة التي جعلت من الواجب تسمية اجتهاده الفقهي بالحزمية (١) .

وفكرة المنهجية أكثر من المذهبية تبدو صحيحة مع ابن حزم ومع المذهب بكامله .

فالمنهج قائم على عدم التقليد وعدم الأخذ بالقياس ، فليس هناك شيخ راسخ يؤخذ عنه ويقتدى به ، ويلتزم بتفسيره .
وبقدر ما يرى البعض في ذلك عيبا ، يراه البعض الآخر ميزة وقيمة .

وبقدر ما قد يكون الأمر سهلا على البعض ، الا أنه «سعب على الآخر» .

ولا شك أن الظاهرية كانت غاية في الجرأة والانتلاق عندما حاولت الخروج عن قواعد المذهبية الى رحاب المنهج ، وعندما أعطت لكل مسلم حق الاجتهاد ، مع رفض التقليد والقياس (٢) .

واذا كان الأمر مقبولا في الفلسفة والأدب ، فإنه غاية في الغرابة والشذوذ في مجال الفقه والتربية ، ولا سيما أن ابن حزم تمسك بمبدأ معين صاغه ويمكن اعتباره شعارا لفكره : « المجتهد المخطئ أفضل عند الله تعالى من المقلد المصيب » .

فمن المحال أن يفتح الباب لكل مجتهد ومفكر ، وطالب وباحث .

(١) راجع : عبد الحليم عويس . ابن حزم الاندلسي — مرجع

سابق ، ص ٩٢ — ٩٤ .
(٢) في هذه النقطة تتشابه الظاهرية مع البروتستانتية في الفكر

السيحي ، ومع البرجماتية في الفلسفة المعاصرة .

لهذا كانت احدى المسقطات المشهورة التي حاول المذهبيون ايقاع الظاهرية فيها أنها فتحت الباب لكل مسلم لكى يفسر القرآن الكريم والحديث النبوى بطريقته الخاصة •

والظاهرية عند ابن حزم تعنى : « ظاهر اللفظ من ناحية اللغة فلا يصرف اللفظ عن معناه اللغوى الا بنص آخر أو اجماع ، لمان نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره وعما وضع له فى اللغة الى معنى آخر أو اجماع • فحكم ذلك النقل أنه باطل ويعتبر تبديلا لكلام الله عز وجل » (١) •

مجمل القول أن منهاج ابن حزم فى فهم المنقول هو الأخذ بظاهره من غير بحث عن علل الأحكام ، وذلك واضح فى فهمه كل الموضوع ، فهو لا يعتمد شيما يستنبط من أحكام فقهية الا على النصوص من الكتاب ، ولا يتجاوزهما وليس للعقل عنده مجال مطلقا وراء النصوص ووراء ظواهرها فليس عنده اجتهاد بالرأى مطلقا • وقد تشدد فى الأخذ بالظاهر وخالف فى هذا الامام الأول للمذهب (٢) •

وقد عبر ابن حزم عن وجهة نظره فقها وأدبا ، نثرا وشعرا ومن ذلك :

وذى عدل يمين سبائى حسنه
يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن حسن وجه لاح لم تر غيره
ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل

(١) ابن حزم • الأحكام فى اصول الأحكام — الجزء الاول ، ص ٤٢ •

(٢) عارف خليل أبو عبيد • الامام داود الظاهرى واثره فى الفقه الاسلامى — مرجع سابق ، ص ١١٠ •

فقلت له : أسرفت في اللوم فأتد
فعندي رد لو أشياء طويل
ألم تر أنى ظاهري واننى
على ما بدا حتى يقوم دليل

والمهم في منهجه تأكيد القاطع لنفى القياس سواء كان قياسا
معروفا أو دليلا ، من هنا يقول في كتابه المحلى :

« قال الله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (١) وقال تعالى
« اليوم أكملت لكم دينكم » (٢) وذلك ابطال للقياس والرأى لأنه
لا يختلف أدل القياس والرأى في أنه لا يجوز استعمالهما ما دام يوجد
نص ، وقد شهد الله تعالى بأن النص لم يفرط فيه شيئا ، وأن رسوله
عليه الصلاة والسلام قد بين للناس كل ما نزل اليهم وأن الدين قد
كمل ، فصح أن النص قد استوفى في جميع الدين ، فإذا كان ذلك كذلك
فلا حاجة بأحد الى قياس ، ولا الى رأيه ولا الى رأى غيره .. » (٣) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان ابن حزم ألف كتابا خاصا عن
هذا الموضوع أسماه « ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد
والتعليل » وبذلك لم تصبح المسألة مجرد وجهة نظر ، بل عنصر أساسى
وركنية هامة في المذهب الظاهري .

ومن وجهة نظر ابن حزم أن القرن الأول شهد ظهور « الرأى »
أى الحكم فى الدين بغير نص بل بما يراه المفتى أحوط وأعدل فى التحريم
أو التحليل .. ثم حدث القياس فى القرن الثانى وقال به بعضهم وأنكره
سائرهم .. ثم حدث الاستحسان فى القرن الثالث .. وأخيرا جاء

(١) سورة الانعام ، آية ٣٨ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٣ .

(٣) ابن حزم . المحلى — الجزء الاول — مكتبة الجمهورية العربية —
القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .

التعليل والتقليد في القرن الرابع ، وكل هذه الأساليب باطلة ومنكرة^(١) .

وحاول ابن حزم أن يفند كل الأساليب السابقة ، وحاول أن يجرح كل التفسيرات والتعليلات التي تسند هذه الأساليب منتهيا الى أن كل حكم في الدين منصوص عليه •

وأنتهى ابن حزم كتابه بقوله :

« من !لحال أن يكون الله يأمرنا بالقياس أو بالتعليل أو بالرأى أو التقليد ثم لا يبين لنا : ما القياس ؟ وما التعليل ؟ وما الرأى ؟ وكيف يكون كل ذلك ؟ وعلى أى شىء نقيس ؟ وبأى شىء نعلل ؟ وبرأى من نقبل ؟ ومن نقلد ؟ •• لأن هذا تكليف ما ليس في الوسع •• »^(٢) •

وقد حاول باحث متخصص^(٣) أنهى رسالته للدكتوراه في « ابن حزم مؤرخا » أن يلخص منهج الامام في مجال البحث الدينى ، مبلور النقاط التالية :

— الالتزام بالنص القرآنى والسنة الثابتة في حدود المعنى الظاهر يحكم دلالة اللغة الواضحة •

— الاعتراف باجماع الصحابة ومن يجىء بعدهم ، كمصدر للتشريع ورفض القياس والاستحسان ورد الذرائع •

— اضافة مصدر للاجماع يسمى بالدليل ، وهو مولد من النص والاجماع وليس حملا عليهما •

— المساواة بين الصحابة ، مع الأخذ بكلام بعضهم ، وترك الآخر ، وأما ما اختلفوا فيه فليس قول بعضهم أولى من قول بعض ، والشريعة وحدها هى المتقيد بها •

(١) ابن حزم . ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل — تحقيق سعيد الامغانى . دار الفكر ببيروت — طبعة ثانية ١٩٦٩ ، ص ٤ — ٦ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ •

(٣) عبد الحليم عويس . ابن حزم الاندلسى — مرجع سابق •

— النظر الى أئمة المذاهب نظرة متساوية •

— رفض التقليد فلا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد سلا برهان •

— رفض التعليل فالشريعة تعبدية والمعقول منها نص الله على معقوليته •

— لا حجة في الكثرة ، فاذا خالف واحد من العلماء جماعة فلا حجة في الكثرة لأن الله تعالى يقول في ذكر أهل الفضل « وقليل ما هم » •

ولا شك أن كثيرا من هذه المبادئ بها معالم ثورة وتمرد ، وانفجار وتحرر •

فمبدأ عدم حجية الكثرة ، والمجتهد المخطئ أفضل عند الله من المقلد الاصيب ، وفتح باب الاجتهاد لكل المسلمين ، ورفض تقليد أحد ولو كان صحابيا كل ذلك به كثير من الجرأة والتجرؤ ، الرفض والتجاوز • وبقدر ما في هذه المبادئ من تحرر بقدر ما فيها من خروج عن بعض قواعد صحيحة استقرت في الفقه ، وفي حياة المسلمين ، أقول بعض قواعد صحيحة ، لأن ما كل القواعد التي استقرت في حياة المسلمين كانت صحيحة ، الا أن بعضها جدير بكل احترام وتقدير ، ومع ذلك فقد ضرب بها المذهب الظاهري عرض الحائط ، وتجاوز عنها ، من هنا أثار سخط سائر الفقهاء ، وعداء سائر المذاهب •

وهذه سمة الصراع الفكري •• الا أن المشكل الحقيقي أن المفكرين لا يكتفون بالصراع بينهم ، بل يجسّدون ذلك للعامة والبسطاء ، ويستعدّون الحكام والأمراء •

من هنا تسلط بعض الحكام ضد الظاهرية ، وحرّقوا كتبها ، وطرّدوا قضاتها •

ثم دار الزمن دورته وجاء الموحدون فثاروا على المالكية والشافعية وحرقوا كتبها ، وطرّدوا قضاتها ! ! وهكذا دورة وصراع ، ومواجهة ومبادلة •

ومرة ثانية فلا بأس من خلاف المفكرين واختلاف وجهات نظرهم ، إنما الاستعانة بالسلطة ، وحشد الجماهير فذلك خطأ لا يغتفر للمفكرين ولا يستطيعون منه فكاً •••

وإذا كانت مثل هذه الفكرة تبدو وجيهة في المنازعات الأدبية والفلسفية فيبدو أن تدخل السلطة ضرورة ملزمة في حالة الفقه ••

لأن حياة المسلمين الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية والسياسية لا تحكمها نظريات الأدب ، ومؤلفات الفلسفة ، إنما أحكام الفقه ، وأصوله المذهبية •

ومن هنا تبدو استعانة الفقهاء بالسلطة ضرورة ملزمة ، وأمرًا مقطوعاً به •• لأن الفقه لا يمكن أن تدور مناقشاته وسط الحلقات والمدارس فحسب ، بل لابد أن يرى الضوء في المحاكم والمجتمعات ، والمؤسسات والسلطات ••

ولهذا صلة الفقه بالسلطة أقوى مئات المرات من صلة الأدب أو الفلسفة ، فلا سلطة من غير فقه تهتدى به أو تتمسح بستائره ، والفقه لابد له من سلطة تطبق أحكامه ، وتنفذ فتاويه •

وإذا كانت جميع سلطات العالم الآن لا تستطيع أن تستغنى عن المستشارين الاقتصاديين والعسكريين المحليين والدوليين ، فهكذا كان الوضع في القرن الخامس بالنسبة للفقهاء •• فلا تستطيع سلطة آنذاك أن تستمر في حكمها من غير فريق من الفقهاء يلتفون حولها وتتخفى وراء عباةاتهم ، وتحت مظلة عماياتهم •

فتتحالف السلطة مع الفقه ، والفقه مع السلطة يبدو ضرورة بحكم طبيعة السلطة ، وطبيعة الفقه ، وما هكذا حال الأدب أو الفن ، فهما ليس في حاجة الى مظلة دولة وسلطة حكم ، بل على العكس فالحكم والسلطة قد يجعلان الفن والأدب موضوعات انشاء ، ونصوصا مجففة •

والمهم أن المنهج الظاهري لم يقتصر على الفقه فحسب ، بل امتد الى بقية الظواهر والمعارف ، ومن هنا استخدمه ابن حزم في دراسة التاريخ العام وتاريخ الأديان ، والسيرة والتراجم ، والعقائد والأديان المقارنة ، والاجتماع والاقتصاد ، واللغة والأدب وخاصة أن ابن حزم ترك « موسوعة حزمية » غطت كثيرا من ميادين عصره وملأت — فيما يقال — ثمانين ألف صفحة !

ورغم أن هذا الرقم — كما سبق القول في الفصل الأول — به كثير أو قليل من تجاوز ، الا أن المهم أن صاحبه كعادة المؤلفين والمصنفين المسلمين الأوائل قدموا انتاجا ثرا ، وذخائر متنوعة •

ولم يقتصر المنهج على دراسات ابن حزم والفقهاء بل امتد الى النحو ، من هنا كتب اختصاصي « كان أكثر نحاة الأندلس فقهاء ومحدثين وقراء ، وبعضهم أخذ بالذهب الظاهري • ولذا ليس غريبا أن نرى كثيرا منهم يحترم المسموع من الكلام العربي ويتمسك بظاهر الشواهد ، ولا يتعسف في التأويل كما كان يفعل نحاة الشرق ، ولا يسرف في القياس » (١) •

وهذا أيضا ما أكدته باحثة في رسالتها للدكتوراة مؤكدة أن « ابن مضاء القرطبي » قد حمل على النحو المشرقي وألف كتابه « الرد على النحاة » بناء على منهج ظاهري يقوم على إلغاء القياس والتعليل ، وإلغاء نظريات وعلل كثيرة في النحو ، وبذلك حاول تخليص

(١) أحمد حسن كحيل ، النحو الفقه الظاهري ، مرجع سابق ، ص ٣٢٩ •

النحو من اغراق المشرقيين في التأويل والتمحل (١) .

وسار في نفس الاتجاه أبو حيان النحوى فاختلف عن النحاة السابقين باتخاذ السماع أساس كل حكم ولا يقيس الا على ما كثر فيه السماع ، واذا اجتمع عنده السماع والقياس رجح السماع وأخذ به . كما كان لا يأخذ برأى أو مذهب ما لم يكن مؤيدا بسماع . بل انه أرجع بعض الاختلاف والتعقيد في المسائل النحوية المعقدة الى القياس الذى أفسد النحو افسادا عظيما ، وعقد دراسته وغمره بتمارين غير عملية (٢) .

المذهب بعد ابن حزم

على الرغم من اجتهاد ابن حزم وجهاده لنشر مذهبه في المغرب ، الا أنه لم يلق سوى الرفض والصد ، والاهمال والنفي ، فحرقت كتبه ، وطورد من مدينة أخرى ، واتهم في عقيدته .

ولاشك أن منهج الظاهرية والأحكام المبنية عليه دفعت سائر الفقهاء الى تأليب الحكام والمحكومين على هذه البدع والافتراءات ، والانحرافات والمستحدثات .

ولقد عبر « ياقوت الحموى » أصدق تعبير عن هذا الصد ، وذلك الاهمال بقوله ان سائر الفقهاء « مالوا الى بغض المذهب الظاهرى ورد أقواله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من قتلته ، ونهوا عوامهم عن الدنو عنه ، والأخذ عنه » (٣) .

وهكذا انتقلت المواجهة بين أفراد فقهاء الى جماعات وسلطات ، وبحكم أن الظاهرية لم تكتسب أنصارا في هذه الفترة المبكرة ، فلم تجد جماعة تتحمس لها أو تناصر موقفها ، فتم خلعها بسهولة ويسر أثناء

(١) خديجة الحديثى . أبو حيان النحوى — مكتبة النهضة ببغداد ١٩٦٦ ، ص ٣١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) ياقوت الحموى . معجم الأدباء — الجزء الاول ، ص ٢٤٨ .

حياة ابن حزم وبعد وفاته مباشرة فلم يكتب لها ذيوع أو انتشار ،
ونهبته أو ازدهار •

الا أن دوام الحال من المحال !

فبعد سنوات قليلة بدأت أعلام المذهب الظاهري ترتفع على يد
دولة الموحدين عندما وصلت الى مقاعد الحكم في أوائل القرن السادس •
وبعد أن كتب ابن حزم رثاءه بنفسه ، وبعد أن جرح جميع أهل
الأندلس وشهر بهم ، وبعد أن اتهم الجميع وانقض على الجميع ، آن
للمذهب أن يصل الى سدة الحكم ، ولكن عن طريق القوة والفرص ،
وليس الاقتناع والابداع •

وهكذا صار ارتباط المذاهب الفقهية بالسيوف والعروش ، أكثر من
ارتباطها بالحجة والاقتناع ، والأخذ والعطاء ، والمعاناة والملاحاة ، والرد
والود ، والنقل والعقل • وليس في ذلك من حرج أو قلق للبعض ،
وفيه كل الحرج والقلق للبعض الآخر •

ولقد تابع ابن حزم كل ذلك بقلمه ووصفه فكتب واصفا حاله
وحال زملائه من المفكرين والفقهاء • لهذا ترك لنا ابن حزم نصا
هاما يوضح صلتة بالعامية والجمهور :

« لقد قرأت في الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي
حرمة الا في بلده ، وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي عليه الصلاة
والسلام من قريش ••

والله يؤتى فضله من يشاء ، ولا سيما أندلسنا ، فانها خست من
حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير
ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته •

ان أجاد ، قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع •

وان توسط ، قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط •

وان باكر لحيازة قصب السبق ، قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أى زمان قرأ ، ولأمه الهبل •

وبعد ذلك ان ولجت به الأقدار ، أخذ طريقين : اما شفوفا دائما يعليه دائما على نظرائه •• أو سلوكا غير السبيل التى عهدوها • فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، وهدفا للمطالب ، ونسبا للنسيب اليه ، ونهبا للالسنه ، وعرضة للتطرق الى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ، ولا اعتقده قلبه وهو السابق المبرز » •

وبعد أن أنهى ابن حزم وصف مشكلته مع المحكومين انتقل الى مشكلة مع الحكام :

« وان لم يتعلق من السلطان بحظ ألا يسلم من المتألف ، وينجو من المخالف فان تعرض لتأليف غمز ولز ، وتعرض عليه وهمز ، واشتج عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهذا عندنا نصيب من ابتداء يجمع شعرا ، أو يعمل بعمل رئاسة ، فانه لا يفلت من هذه الحبائل ولا يتخلص من هذا النصب الا للناهض الغاث ، والمطفئ المستولى على الأمر •• » •

ولا شك أن النصين السابقين يصفان بدقة ملخص حياة ابن حزم : نزال وجدال ، وكر وغر ، وأقدام واحجام ، ثم انتهت بالفرع والهلع ، فالفنى والتشريد •

والظاهر أن مذهب الظاهر بجسارته وجراته ، وابن حزم بملاحاته وعناده لم يستطع غزو العقول ، والوصول الى كراسي الاهتاء •

الا أن انقطاعه فى سنواته الأخيرة ، واصراره ودأبه طوال عمره أتاحا له تسجيل المذهب بكامله ، وتصنيف مؤلفاته ، وترتيب أحكامه ، والرد على مخالفيه ، بحيث أتاح الفرصة لكل منتج ، وهيا الظروف لكل باحث كي يقرأ المذهب بكامله ويتعرف على أصوله وردوده ••

ومن جهة ثانية فإن انقطاعه في السنوات الأخيرة من حياته أتاح له تربية بضع تلاميذ ، واعداد بضع تابعين .. والمهم في النص السابق اشارة ابن حزم الى أن الفقيه من غير سلطة لا يسلم من المقتال ، ولا ينجو من المخالف !! ونتيجة خلو ابن حزم من السلطة وبعده عنها ، بدأت الدنيا تتقلب عليه ، والاتهامات تحشد له ، والأفانيد توجه اليه !!

بطبيعة الحال ، هناك في المذهب ثغرات وعورات ، وبدع ومستحدثات الا أن مناوئة السلطة له زادت من بلائه ونفور الناس منه .

واذا كانت حالة ابن حزم تعبر عن الاغتراب والمفارقة ، فهي تعبر أيضا عن عداوة الفكر لمجتمعه — كل مجتمعه — اذا ما نفر منه هذا المجتمع أو تنأى عنه بجانبه ، وكأن الفكر نبي ملهم لابد للناس من طاعته والاقتراء به .. وهذه اشكالية كبيرة .

فالمفكر قد يتصور أنه رسول العناية الالهية ، وأن المجتمع بقياداته وجماعاته ، عليه الامتثال والخضوع والتبعية والانصياع . وبذلك يتحول المفكر من رسول فكر الى رسول سماء ، ومن موجه ومحاور الى مشرع ورجل دولة . وفارق كبير بين المفكر ورجل الدولة ، والجمع بينهما يضر أكثر مما ينفع . لذلك تظل مشكلة العلاقة بين الفقه والسلطة مشكلة دائبة .

السلطة تبحث عن فكر يظللها تستهدي به ، وتنفع به الناس ، أو تكسب به عواطفهم ، وتدغدغ مشاعرهم ..

والفقه يبحث عن سلطة تحيله من قول الى فعل ، ومن مجرد الى مشخص ، ومن هتوى الى تطبيق ، ومن أحكام الى الزام ..

خلاصة القول أن بضع تلاميذ أخذوا عن ابن حزم ، وساروا مسيرته وأهتسوا بمنهجه .. من هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبي نصر

(م ٧ — ابن حزم الاندلسي)

(٤٢٠ هـ — ٤٨٨) ^(١) ومنهم أيضا أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن الذى عاش فى القرنين السادس والسابع ^(٢) .

وكل ذلك يسير وطبيعى . . فكل مفكر وفقيه تلاميذ ومريدون .
ومعارضون ومناوئون . . الا أن الجديد فى الموقف هو نشأة دولة
الموحدين . .

فعندما تولى يعقوب بن يوسف من سنة ٥٨٠ الى ٥٩٥ خلع
المالكية وزرع الظاهرية . والصورة التالية يقدمها عبد الواحد
المراكشى ، ولا يحدثك مثل خبير عاش واقترب ، ثم تنفس وتشرب :

« فى أيام يعقوب ، انقطع علم الفروع ، وخالفه الفقهاء ، وأمر
بأحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من أحاديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم والقرآن . فأحرق منها جملة فى سائر البلاد . .
ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس أن يؤتى منها بالأحمال ،
فتوضع ويطلق فيها النار » ^(٣) .

وهكذا دار الزمن دورته ، وأحرقت نيران القرن السادس كتب
المالكية ، وأحرقت نيران القرن الخامس كتب الظاهرية ، وفى ذلك
يقول المرحوم أبو زهرة « ما كان للثانية مبرر ، وما كانت الأولى سائغة
ولا مقبولة » ^(٤) .

والحق ما قال الشيخ أبو زهرة :

ما كانت الأولى ولا الثانية مقبولة أو سائغة ، ولهذا يمكن القول
بأن النيران التى أحاطت بالمسلمين لم تكن نيران التتار أو ملوك
الفرنجة فحسب ، بل كانت نيرانا داخلية تحرق الفكر وتآكل الجهد . تلتهم

(١) راجع : محمد أبو زهرة . ابن حزم — مرجع سابق ،
ص ٥١٧ — ٥١٨ .

(٢) محمد أبو زهرة . تاريخ المذاهب الاسلامية — الجزء الثانى فى
تاريخ المذاهب الفقهية — دار الفكر العربى ، ص ٤٠ .

(٣) عبد الواحد المراكشى . المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — تحقيق
سعيد العريان — المجلس الأعلى للثئون الاسلامية — القاهرة ١٩٦٣ .

(٤) محمد أبو زهرة . ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٥٢٠ .

معاناة الليالى وتقضى على قرائح المسلمين ، وتمنع تحويل الفكر الى واقع ، والأمل الى عمل •

وبعد أن حرق كعب ابن حزم ، وطرد من مدينته ، وانتصرف الناس عنه دار الزمن دورته فدخل الخليفة المنصور الموحدى الأندلسى ومر على قبر ابن حزم خاشعا متبتلا ، وقال :

« عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العانم » ثم التفت لمن حوله وأردف :

« كل العلماء عيال على ابن حزم » (١) •

وهكذا بعد أن رفض ملوك الطوائف مذهب ابن حزم ، جاء ملوك الموحدين وفرضوا مذهبه ، وبذلك عاش المسلمون متأرجحين بين تحالف السلطة مع مذهب ، وعدائها لمذهب :

الظاهرى تفرض عليه المالكية ، والمالكي تفرض عليه الظاهرية بالسيف والسلطان ، وليس بالعقل والقرآن ، وبذلك صدقت عبارة ابن حزم :

« من لم يتعلق من السلطات بحظ لا يسلم من المتالف ، ولا ينجو من المخالف •• » •

واذا كان ابن حزم قد قال عبارته السابقة وقت شدته ، فلاشك أن شيوخ المالكية قالوها بعده بأقل من قرن •

ثم عادت المالكية وفرضت على الأندلس من جديد وحوربت الظاهرية ••

واذا كان المسلمون قد صنعوا ذلك بأنفسهم وأهدروا حقوقهم ودماءهم فانهم بذلك فتحو الباب لأعدائهم ، لذلك لم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد الى انسحاب المسلمين من الأندلس بعد مكوثهم فيه ثمانية قرون •• وبعد أن كانوا سادة وقادة بدأ فرناندو فى نقض شروطه التى

(١) ابن الخطيب • نفح الطيب - الجزء الرابع ، ص ٢٢٢ •

اشترط عليها المسلمون أول مرة « ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى أن نقضها جميعا ، وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان فى الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة الى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرهم عليه ، فدخلوا فيه كرها » (١) .

والذى يراجع تفاصيل مرسوم ايزابيلا فى عام ١٥٠٢ لتنصير « أعداء الدين المسيحى » ، والذى يتابع أوامر الكردينال « زمنيذ » لمطاردة المسلمين وسحقهم وحرق ثقافتهم يجد تفاصيل يندى لها الجبين وتتشعر منها الأبدان وتوضح كيف أن التعصب الدينى ، والمصالح الاقتصادية ، والطمع فى ثروة الأندلسيين ، والرغبة العارمة فى الانتقام أفرزت مذابح ومخازى (٢) .

ومثل هذه التطورات والأحداث تفرض أسئلة متعددة منها :
الى متى سيظل الفكر والفقه لا ئذا بالحاكم ، وأليس من حق الفكر أن ينمو وينتشر من غير سيف أو بطش ؟ والى متى سيظل المسلمون لا يتعلمون من دروس الماضى والحاضر ؟ وأليست أسباب سقوط غرناطة والأندلس بكاملها تشهد مثيلا لها اليوم ؟ وأليست شروط ايزابيلا وفرناندو للفتح نجد لها مثيلا اليوم ؟ اتفاقيات وعقود علنية وسرية ؟

أسئلة محيرة متضاربة تؤكد أن أسباب الاخفاق والفشل واحدة .
وأسباب النجاح والتقدم مشتركة .

والآن بعد هذه الجولة فى فكر ابن حزم ومنهجه ، وموقفه من قضايا مجتمعه وعصره ، ما موقفه من قضايا التربية والتعليم ، والانسان والمعرفة ؟ هذا ما سيناقشه الفصل التالى بشئ من التفصيل .

(١) شهاب الدين المقرئ التلمسانى . ازهار الرياض فى اخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين . الجزء الأول ، ص ٦٨ - ٦٩ .
(٢) راجع عادل يشتاوى . الأندلسيون المداركة - دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة - القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١٩ - ١٢٢ .

الفصل الثالث

ملاح فكه التربوى

تكرر القول بأن ابن حزم لم يكن معلما محترفا الا أن ذلك لم يمنعه من تسجيل سوانح وملاحع عن الانسان وطبيعته ، والمعرفة ومصادرها ، والتعليم والتعلم ، وآداب مجالس العلم ، والعلم وقضله ، وتصنيف العلوم وضرورة التكامل بينها ... الخ .

بطبيعة الحال ليس المطلوب من شيخنا أن يقدم نظرية تربوية متكاملة ، فليست هذه وظيفته .

وليس المطلوب منه معالجة القضايا التي نعالجها اليوم ، فليست هذه مهمته بل يكفيه الادلاء برأيه في بعض قضايا عصره ، وتحليل بعض تهديدات مجتمعه .

ولقد تبين للقارىء من خلال الفصل السابق - أن منهجه الظاهري امتد من الفقه وأصوله الى سائر جوانب فكره وفنه ، وعلمه وأدبه مما جعل له تميزه واستقلاله ، وتفرد وخصوصيته .

ولعل الصفحات التالية عن حرية الانسان ، وطبيعة تكوينه ، ومصادر مرفته تؤكد أن المنهج الحزمي لم يقتصر على كتب الفقه بل امتد لقضايا الانسان والمجتمع ، والعلم والتعليم .

اولا - حرية الانسان :

اختلفت اتجاهات حضارتنا الاسلامية حول قضية الجبر والاختيار .. ووصل الاختلاف الى حد التقابل بين الجبرية المبالغ فيها والحرية المطلقة .

فأين كان ابن حزم من هذه القضية ؟

كان موقفه تعبيرا عن منهجه الظاهري فحيث أن الانسان له استطاعة لتفسير النص من غير اعتماد على قياس أو تأويل ، بل وفقا لمذاق النص وما تعارفت عليه لغة العرب .

وحيث أن الانسان له حق الاجتهاد ، وان الاجماع لا يتحقق
الا اذا كان اجماع الصحابة •

وحيث أن ابن حزم رفع شعارا ملتبها « المجتهد المخطئ » ، المفضل
عند الله من المقلد المصيب •

اذا كان كل ذلك كذلك فلا بد أنه سينعكس على موقفه من الانسان
واستقلاله • لهذا كان ابن حزم من المؤيدين لمبدأ الاختيار ، ورفض
مبدأ الجبر بل يرى فيه مخالفة للنص والحس واللغة :

— النصوص القرآنية تؤكد « جزاء بما كنتم تعملون » وتؤكد
« لم تقولون ما لا تفعلون » فكل ذلك يؤكد النص على العمل
واسناده الى صاحبه وليس الى غير ذلك •

— والحواس تؤكد الفارق بين الانسان صحيح الجوارح والعاجز
منها « فصحيح الجوارح يفعل القيام والقعود وسائر الحركات
مختارا دون مانع والذي لا صحة لجوارحه لو رام ذلك
لم يفعله .. » (١) •

— واللغة توضح أن المجرى هو الذى يقع الفعل منه بخلاف
اختياره وقصده ، فأما من وقع فعله بناء على قصده ، فلا يسمى
فى اللغة مجبرا •

بيد أن الفعل الانسانى لا يكون نتيجة الاستطاعة وحدها بل لابد
من زوال الموانع ، وتوفيق الله سبحانه وتعالى « فالقوة التى ترد من
الله تعالى ، فيفعل بها الخير تسمى بالاجماع توفيقا وعصمة وتأيدا •
والقوة التى ترد من الله سبحانه وتعالى على العبد فيفعل بها ما ليس
طاعة ولا معصية تسمى عزا أو قوة أو حولا ، لهذا يقال لا حول
ولا قوة الا بالله .. » (٢) •

(١) ابن حزم • الفصل — الجزء الثالث ، ص ٢٣ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ •

اذن الفعل البشرى يقع بثلاثة عناصر :

— استطاعة أودعها الله في عباده •

— وزوال الموانع •

— وتوفيق من الله مع القدرة الانسانية •

وبهذا يلتقى ابن حزم مع المعتزلة في أن الأعمال تسند الى العبد باستطاعة أودعها الله اياه ، الا أنه يختلف معهم حيث أنهم لا يرون أن الله يريد الشر ، في حين أن ابن حزم أخذ بظاهر الآية الكريمة « يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » (١) •

وهكذا كان ابن حزم أميل للحرية والاختيار ، والارادة والتمييز « فالحمد سبحانه وتعالى خلق نفس الانسان مميزة عاقلة عارفة بالأشياء على ما هي عليه ، وخلق فيها قوتين متضادتين : التمييز والهوى •

والتمييز خص نفس الانسان والجن والملائكة دون الحيوان الذى لا يكلف •

والهوى يشارك فيه نفس الحيوان •

فاذا عصم الله النفس غلب التمييز بقوة من عنده فجرت أفعال النفس على ما رتب الله عز وجل « (٢) •

اذن ظاهرية ابن حزم مبنية على ايمان عميق بحرية الفرد ، وقدرته على الادراك والتمييز ، الفهم والتحليل ، مع استخدام القدرة على تفسير النصوص بدون افتئات أو مبالغة بل بما تقتضى به أصول العربية ، بدون تقليد لأحد •

والمقارئ للفصل الأول يذكر عبارة ابن حزم في كتابه الأخلاق والسير التى أكد فيها أنه لا يبالي ولو اختلف مع جميع أهل الأرض ،

(١) سورة المدثر • من الآية ٣١ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٦ •

واعتباره ان هذه الخصلة من أكبر فضائله .. ولا شك أن ذلك يعكس مفهوما للحرية الفردية وثقة بالنفس واستقلالا عن الآخرين .

ولا شك أن هذا الموقف الشرعى ستكون له كثير من التطبيقات الاجتماعية والتربوية وسيتضح ذلك :

• فى موقفه من الرقيق والجوارى

وموقفه من رئاسة المرأة •

وموقفه من أهل الباطن والعلم اللدننى •

وموقفه من أستاذه •

وبخصوص موقفه من الرقيق والجوارى فقلقد أكد مرارا أنهم لا يختلفون فى الحقوق عن الأحرار ، بل ان منهم صالحين نافعين ، أتقياء أنقياء ، وأفضل من كثير من الأحرار •

واذا رغب العبد فى الحرية فلا يستطيع مالكة أن يجرمه منها ، وتفسيره الظاهرى فى ذلك مبنى على الآية الكريمة « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايما نكم فكا تبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » •

ولو قصر مالك العبد فى ذلك فان السلطان يجبره على ذلك :

فالعبد الذى يطلب الحرية ، على مالكة أن يهيىء له أفضل السبل لتحريره ، وذلك بالاتفاق على سعر معين يبدأ العبد فى سدا ده ، شريطة ألا يكون هذا السعر مجحفا بالمالك ، وفى حدود طاقة العبد • وإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك على العقد وفقا لسعر مناسب يحدده السلطان •

وبخصوص مدى حرية العبد أتى ابن حزم بجديد من الأقوال خالف فيه الجمهور •

من ذلك قوله بأن للعبد حق الزواج من أربع نسوة ، وفي جواز التسرى . . وبخصوص القضية الأولى يؤكد « أن الله سبحانه وتعالى حدد لنا « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » فلم يخصص عبدا من حر في ذلك » (١) .

وبخصوص القضية الثانية يؤكد أن العبد مثل الحر يجوز له أن يتسرى بمن شاء من الجوارى لقول المولى سبحانه وتعالى « فان خفتكم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » (٢) وإذا كان ذلك جائزا للحر ، فهو كذلك للعبد لأنه لم يرد نص يفرق بين العبد والحر في ذلك . . كما أن العبد له حق الملكية ، ومن ثم يجوز له أن يملك الاماء .

وبذلك خالف ابن حزم الجمهور أو اجماع الجمهور في بعض القضايا مستندا للمبدأين الأساسيين السابق تأكيدهما في الفصل السابق .

العودة للنص مباشرة ، واشتراط اجماع الصحابة في حالة الاختلاف فلا ضرورة للتقيد بواحد .

وبذلك كله أعطى ابن حزم كافة حقوق الحر للعبد ، رغم أن عقوبة العبد نصف ما على الحر من عقوبة .

فالحقوق مكفولة لأنها مشتقة من الآدمية .

والعقوبات تنصف لأن النص واضح فيها لا يقبل المناقشة أو الاختلاف .

كانت هذه وجهة نظر ابن حزم في حرية الإنسان وعدم الفصل بين العبد والحر في الحقوق . ولا شك أن بعض هذه الآراء كانت ثورة فكرية جرت على صاحبها المشكلات ، وساعدت على اذكاء نيران

(١) ابن حزم . المحلى — الجزء التاسع ، ص ٤٤٤ .

(٢) سورة النساء ، آية ٣ .

الاختلاف بينه وبين الفقهاء والأمراء ، ولكنه لم يبال مستندا الى وجهه
نشره في الكتاب والسنة ، والى القاعدة التى راض بها نفسه من أنه
لا يبالى باختلاف وجهة نظره حتى عن جميع أهل الأرض ١١

وكما سبق التأكيد فى مقدمة هذه الدراسة ، فليس المقصود
محاكمة ابن حزم ، بل الاكتفاء بعرض وجهة نظره وتوضيح انعكاساتها
الاجتماعية والتربوية ، والنفسية والتعليمية • أما مدى سلامة هذه
الآراء أو خللها ، فذلك قضية أخرى لها أصحابها المتمرسون مؤيدين
ومعارضين •

✽ أما بخصوص موقفه من رئاسة المرأة فسيأتى ذكر ذلك
بالتفصيل فى طبيعة الانسان •

✽ وأما موقفه من تعلم العلوم المختلفة فلا شك أن موقفه من
حرية الانسان ارتبط بذلك ارتباطا وثيقا •

فحرية الانسان تقر وجود قدرة على التمييز والفصل •

هذه القدرة هى العقل وتوفيق الله ، ولذلك فالعلوم التى تزعم
أنها علوم « باطنية » والأشخاص الذين يزعمون أن لديهم علما
« لدنيا » كل ذلك مرفوض وممنوع ، ولهذا فقد اجتهد فى « التقريب
لحد المنطق » لاثبات حجبة كل علم من خلال العقل والحس (١) •

أما العلوم التى تحتاج بصيرة خاصة تخرج عن حيز العقل ،
والعلوم التى يزعم أصحابها أنهم تلقوها عن طريق امام خفى أو امام
معصوم فكل ذلك لا دليل عليه ولا صحة له •

وهنا يتضح الارتباط بين الظاهرية ، والعقل ، والحرية • فكل
ما يصادر على حرية الانسان نتيجة مزاعم الباطنية ، وكل ما يحجر على

(١) ابن حزم • التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ،
ص ٢٠١ — ٢٠٣ •

حرية العقل في التفسير والتعليل - وفقا لقوانين بداهة العقل • ووفقا
لأصول اللغة - يعتبر مرفوضا •

لذلك كان ابن حزم ثورة فقهية فكرية ضد أهل الباطن والعلم
اللدنى الذين يصادرون على العقل والحس ، ويخضعون المعرفة
والانسان لأوامر وتوجيهات ، وأسرار وخفايا يعجز العقل عن تفسيرها ،
ولا يستطيع الحس ادراكها ولهذا كان موقفه من المتصوفة والشيعة
الرفض القاطع ، والانكار المستمر •

✽ أما موقفه من أساتذته وشيوخه فلقد سبقت الإشارة لعبارة
الشهيرة : «وأبو داود شيخ من شيوخى ان أصاب الحق فنحن معه اتباعا
للحق ، وان أخطأ اعتذرنا له واتبعنا الحق حيث فهمناه » ومن الواضح
أن ذلك تأكيد لحرية الانسان فى البحث والتحليل ، دون التزام بقيود
الأستاذ أو منطق المجتمع • ويؤكد ذلك أيضا شعاره المعروف « المجتهد
المخطئ أفضل عند الله من المقلد المصيب » !! ومعنى ذلك تأكيد عميق
لحرية الباحث فى بحثه ، ودعوة للاجتهاد من أوسع الأبواب دون خوف
أو وجل ، ودون تقليد أو اقتداء • وبذلك كان ابن حزم تعبيرا عن حرية
الباحث والتعلم ، والفقيه والمفسر ، والمحلل والمناقش •

ثانيا : طبيعة الانسان :

لابن حزم آراء متنوعة فى طبيعة الانسان استمد معظمها من الفكر
الاسلامى المطعم بالفكر اليونانى ، والجديد فيها هو القسّمات الظاهرية
والتفسيرات الفقهية •

ويمكن بلورة فكره فى طبيعة الانسان فى النقاط الأربع التالية :

حقوق المرأة ، ومكونات الانسان ، ودوافعه ، وأفعاله • والنقطة
الأخيرة سبق مناقشتها فى المحور الأول لهذا لن تكرر ثانية ونكتفى
بثلاث نقاط :

١ — حقوق المرأة :

سبق القول في الفصل الأول بأن لابن حزم سوء ظن في المرأة طبع عليه نتيجة ما شاهده منها في طفولته ، هكذا حكى لنا في طوق الحمامة •

وعلى الرغم من ذلك فقد أفتى بإمكانية أن تتولى الوظائف العامة اذا كانت صالحة قادرة مؤهلة معدة ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى تفسيره الظاهري ، ومجتمعه الأندلسي •

وفيما يتعلق بتفسيره الظاهري فقد فهم الحديث النبوي الشريف « لعن الله قوما ولوا أمرهم امرأة » على أنه ينصرف فحسب على الامامة أو الخلافة ، أما فيما عدا ذلك من الوظائف والأمور ، فللمرأة حق الولاية بدون حرج أو منع • فلم يرد في القرآن الكريم نص صريح يحرم على المرأة ولاية أمور المسلمين ، بل لقد ورد في الحديث النبوي الشريف « والمرأة راعية وهي مسئولة عن رعيها » • لذلك أفتى شيخنا بحق المرأة في تولي القضاء والافتاء ، بل رئاسة الرجال والتدريس لهم ، وإدارة شئونها وتولى شئون الغير • والمحظور الوحيد توليها الخلافة أو الامارة •

أما فيما يتعلق بمجتمعه الأندلسي فلقد سبق القول في الفصل الأول بأن المرأة الأندلسية كانت أسعد حظا وأوفر نصيبا من المشرقية • والى ذلك أشار « خوليان ريبيرا » مؤكدا أن أسباب عاقبة المرأة عن التعليم في الأندلس كانت أقل من سائر البلاد الاسلامية • وبعض النساء حصلن على نفس اجازات الرجال ، وبعضهن قمن بتدريس الفقه والقراءات ، والتوحيد والسنة ، وتكفى الإشارة الى أنه بالناحية الشرقية من قرطبة كانت هناك مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي بأناقة وانتقان ، ولا بد أن عددهن ببقية قرطبة كان أكبر من ذلك بكثير » (١) •

(١) خوليان ريبيرا • التربية الاسلامية في الأندلس — مرجع سابق •

لهذه الأسباب الفقهية والاجتماعية أفتى ابن حزم بجواز تولي المرأة سائر الشئون تدريساً وقضاء ، ورئاسة وإدارة ، عدا الخلافة أو الأمانة .

بطبيعة الحال هناك محاولات مستمرة من بعض المستشرقين — وبخاصة الأسبان — يرجعون درجة التحرر والحرية في الأندلس إلى جذورها القرطبية وحضارتها المسيحية !! ويبدو أن ذلك يحتاج إلى تذكير بوضع المرأة في العصور الوسطى المسيحية وما قبلها من عصور . فما كانت محل تكريم وتقدير ، ولا موضع تعليم ورئاسة ، وكان ينظر إليها — غالباً — باعتبارها مصدراً للشر ومحلاً للخطيئة ، فأين ذلك من التفوق في دروس التوحيد والفقه ، والقراءات والتفسير ؟ وأين ذلك من مهارة الخط واثقان الرسم والتشكيل ؟

والآن ننتقل للنقطة الثانية في طبيعة الإنسان .

٢ — مكونات الإنسان :

انطلق ابن حزم في هذه النقطة معتمداً على رصيده الفقهى وتحصيله الفلسفى ، لذلك يشير لفظ انسان إلى ثلاثة استخدامات عنده :

— النفس فقط لقوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا » (١) .

— الجسم فقط لقوله تعالى « خلق الانسان من صلصال كالفخار » (٢) .

— ثم النفس والجسم معا في تألف وانسجام .

ولابد من النظر للإنسان بهذا المنظور المتكامل بحيث لا تغلب بعدا على آخر ، أو استخداما دون سائر الاستخدامات .

(١) سورة المعارج ، من الآية ١٩ إلى ٢١ .

(٢) سورة الرحمن ، آية ١٤ .

هذه النظرة الشرعية الفلسفية للانسان استمدتها ابن حزم من أصوله الاسلامية من جهة ، ومن اطلاعه على الفكر اليونانى من جهة ثانية .

ومع ترايد السن ، والاحساس بالحصار النفسى والعلمى ، والتضييق عليه فى المناظرة والجدل بدا ابن حزم أكثر تشاؤما وأشد ضيقا بما حوله ، من هنا ظهر فى شعره ونثره نوع من الضجر والزهد . ورغبة مستحكمة فى تهذيب النفس والسيطرة عليها من هنا قال :

ومن عرف الرحمن ولم يعص أمره
ولو أنه يعطى جميع الممالك
سبيل التقى والنسك خير المسالك
وسالكها مستبصر خير سالك
فما فقد التنقيص من عاج دونها
ولا طاب عيش لأمريء غير سالك
وطوبى لأقوام يؤمون نحوها
بخفة أرواح ولين عرائك
لقد فقدوا عز النفوس وفضلوا
بعض سلاطين وأمن صمالك

٣ - دوافع الانسان

لشيخنا عبارة حاسمة يقول فيها :

« الدافع الأساسى للسلوك طرد الهم ، والمحرك الأساسى للاقتصاد الطمع » !! ورغم ما فى هذه النظرة من فردية وبنفعية تعكس أوضاع المجتمع وسلوك أفرادة ، فإنه كسائر الفقهاء رفض الماء باعتباره مصدرا للحياة ومحركا لها .

وإذا كان ابن حزم قد ركز على الطمع باعتباره محركا للاقتصاد ، فإنه كفقيه منع جواز بيع الماء بوجه من الوجوه لا فى ساقية أو نهر ، ولا فى عين أو بئر ، ولا فى صهريج أو قربة .

ولكن ما الموقف للذى بنى بثرا بماله وجهده ؟

له أن يأخذ فقط قدر حاجته ، وأما ما زاد عن ذلك فلا يحق له أن يمنعه عن غيره أو يبيعه لهم .. ومن استسقى قوما ولم يسقوه ، وهم يعلمون أنه لا ماء له ، فهم قاتلوه عمدا ، وعليهم القصاص .

ونفس الشيء ينطبق على حالة الجوع ، وحالة العرى ، فالذى بحرّم جائعا أو عاريا ويعلم أن لا طاقة له بذلك ، فكأنه قاتله .

ولقد سبق القول في الفصل الثانى بأن ابن حزم حرّم تأجير الأرض الزراعية واكتفى فقط بنظام المزارعة والمشاركة ، أو يتولاها صاحب الأرض بنفسه دون إيجار مما دفع الشيخ « محمد أبو زهرة » الى القول بأن ابن حزم ينزع منزع الاشتراكية (١) .

وقد رخص هذا التخييج الدكتور عبد الحليم عويس في كتابه عن ابن حزم مؤرخا .. والمهم في الدراسة الحالية أن ابن حزم الذى ولد في النعيم والقصور ، وبعد ذلك عاش سنوات الشظف والطرّد لم ينس الفقراء والمعدمين لذلك أفقّى لصالحهم ، سواء كانوا أحرارا أو عبيدا ، أو نساء أو رجالا .

وفي مطلع هذا الفصل تأكيد واضح لموقفه من الحقوق الكاملة للعبد رغم أن له نصف العقوبة ، وفي هذا المحور تأكيد على حق المرأة في تولى الوظائف المختلفة بدون حجب أو منع .

وعبارة ابن حزم الخاصة بطرد الهم فسرّها « عبد البديع الخولى » بالمعنى الحديث للدواغ « فمعنى الهم يرادف حالة التوتر التى تنشأ عند الانسان نتيجة احساس داخلى أو مثير بيئى بنقص شيء معين له أهمية في حياة الانسان » (٢) .

(١) محمد أبو زهرة . ابن حزم — حياته وعصره — مرجع سابق ،

ص ٥٧٢ .
(٢) عبد البديع الخولى . الفكر التربوى في الاندلس — مرجع

سابق ، ص ١٣٦ .
(م ٨ — ابن حزم الاندلسى)

أذن الهم هنا بمعنى الدافع للسلوك المحرك له « فالناس على اختلاف أهوائهم ومطالبهم لا يتحركون أصلا الا فيما يرجون به ضردهم .. فالذى يطلب العلم يطرد به عن نفسه هم الجهل ، وكذلك في حالة الأكل والشرب .

وكل هذه أمور مؤقتة محدودة « أما طرد الهم على الحقيقة فليس له الا طريق واحد وهو العمل لله تعالى » (١) .

ونتيجة أن هناك صراعا داخل النفس بين التمييز والهوى فقد يحدث أحيانا للانسان ميل ناحية الهوى ، وبذلك يتطاحن ويتشاحن ، يتصارع ويطمع فيما في أيدي الآخرين .. وبذلك تظهر مظاهر الخلق الذميم من جبن وشح ، وجور وجهل ، وكل ذلك تعبير عن الطمع .

أما إذا تغلبت قوى التمييز التي تميز بها الانسان والجن والملائكة فعندئذ يمد الله عبده بقوة من عنده فيفعل طيبات الأعمال ، وصالح الأعمال وهذه القوة سبقت الإشارة اليها عند مناقشة حرية الانسان حيث ورد الحديث عن توفيق الله وهدايته لعباده وبذلك يوجه الانسان الاستقامة التي أودعها الله فيه توجيها حسنا :

يتحكم في الهوى والطمع ، ويعلى من شأن التمييز والعقل .

وابن حزم بذلك لم ينكر حرية الانسان ومسئوليته عن أفعاله ، وفي الوقت نفسه لم ينكر توفيق الله ومساعدته لعباده .. وبذلك تتعانق حرية الانسان مع مشيئة الله وتوفيقه ويتجسد السلوك معبرا عن مسئولية الفرد واختياره ، بدون جبر مطلق ، أو حرية مطلقة .

وقرب نهاية ابن حزم توجه في نشره وشعره وجهة وعظية ناهيا عن اتباع الهوى والمصالح من ذلك قوله :

(١) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ١١٧-١١٨ .

أقول لنفسي ما مبین كمالك
وما الناس الا هالك وابن هالك
صد النفس عما عابها وارغض الهوى
فان الهوى مفتاح باب المهالك

والذى لا شك فيه أن ما أصابه من صد واهمال ، ومعاناة
ومشقة قد أثرا على تفسيراته قرب نهاية حياته فصار أكثر تشاؤما
وأكثر تجردا •

والآن تنتقل الدراسة الى المحور الثالث :

ثالثا - طريق اكتساب العلم :

يولد الانسان على الفطرة لا يعلم من أمر دنياه ومعاشه ، ثم يبدأ
رحلة الحياة طاردا الهم ، ملبيا للحاجة لذلك يقول المولى عز وجل
« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » (١) •
ويستعين الانسان بأربع قوى خلال اكتسابه للمعرفة :
الحس ، والظن ، والتخيل ، والعقل •

ولابن حزم تعليق على كل قوة من القوى الأربع ورد في كتابه
« التقريب لحد المنطق » مستفيدا من قراءاته الفلسفية وتكوينه
الفقهى المميز :

— فالحواس السليمة قد تقصر عن ادراك الكثير من مدركاتها ،
وقد تضعف عنها ، وقد تخطئ فيها ، ثم لا يلبث للنفس
ادراك خطئها وتفسيرها •

— أما الظن فهو أكذب دليل لذلك قال تعالى « ان بعض الظن
اثم » وروى عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « الظن
أكذب الحديث » •

(١) سورة النحل ، آية ٧٨ •

— أما التخيل فقد يسمعك صوتا حيث لا صوت ، ويريك شخصا ولا شخص لذلك قال تعالى « يخيّل اليه من سحرهم أنها تسعى » (١) فأخبرنا تعالى بكذب التخيل .

— وأخيرا يأتى العقل الذى اعتبره ابن حزم نقطة الانطلاق ، ومعيار الحكم على القوى الثلاث السابقة :

« فخداع الحواس وخذلانها يستبان وبالعقل ، فالحواس تتبع للعقل ، وذو العلال الذى يغلب هواه عليه لا ينتفع بما أدركت حواسه .

لذلك فليس هناك غير العقل يوثق به ، وبه تميز مدركات الحواس السليمة أو المخدولة بالمرض .

فهو أداة مراجعة الحواس نعرف به ما غاب عن حواسنا ، وما نسيته ذاكرتنا .

ومن جهة ثانية فهو القوة التى تميز بها النفس جميع الموجودات وترتبها وتصنفها ، وتثبت لها الصفة الحقيقية وتنفي عنها غير الحقيقة .

ومن جهة ثالثة فهو القوة التى نرجع اليها فى صحة الديانة والعمل الموصلين الى الفوز بالآخرة والسلامة الأبدية ، وبه نعرف حقيقة العلم ونخرج من ظلمة الجهل ، ونصلح تدبير المعاشر والعالم والجسد » (٢) .

وهنا ترتبط نظريته السابقة فى حرية الاختيار مع توفيق الله ، مع قوله بدفع الهم ، والسعى وراء طلب الآخرة ، وكل ذلك يتحقق بتحكيم العقل وتغليب الفهم بدلا من التخيل أو الظن ، أو الارتكان الى النخواس فقط . ولا شك أن فكرة ابن حزم تمثل قمة التجربة الحضارية الإسلامية من غير أسرار أو أسفار ، ومن غير أئمة مستورين أو مغالاة

(١) سورة طه . آية ٦٦ .

(٢) ابن حزم . تقريب حد المنطق — مرجع سابق ، ص ١٧٦ — ١٨٠ .

في رموز وعلوم للخاصة • لهذا كان الرجل بحق تتويجا لفقهاء السنة
الذين أفادوا من علوم دينهم وعلوم الثقافات السابقة عليهم •

ويرتبط بذلك دعوته للاستزادة من العلم بالعقل مما يزيد العقل
جلاء ويزيد العلم اتساعا « فكشف العلوم النافعة يزيد جودة ويعفيه
من كل آفة ، ويهلك ذا العقل الضعيف » •

والانسان عنده علم البديهة وهو علم النفس ، وبذلك يتميز
لأنسان عن الحيوان •

فالطفل يدرك بالبديهة أن الجزء أقل من الكل ، وأن المكان الواحد
لا يشغله جسمان في وقت واحد ، وإذا كبر أدرك أن الأخبار لا يصح
أن تتعارض ، فإذا تعارضت شك فيها جميعا وربما ألغاه • • وهكذا
يتطور الانسان وينمو مستخدما عقله بادئا من البداهة التي فطر عليها ،
ساقلا تجربته بالحواس السليمة ، والعقل المنزه عن الهوى •

والمصادر الأصلية للمعرفة ثلاثة :

الفطرة ، والحواس ، والمتوترات •

فالفطرة أوائل العقل التي لا يختلف فيها الانسان ، ولا يدري
أحد كيف تم العلم بها •

والحواس لها قوة الاتصال بالمحسّات ، وهي أمر ضروري أوقعه
الله في نفس الانسان ، ولا يدري أحد أيضا كيف يبدأ تمييزه
وادراكه للأشياء (١) •

أما المتوترات فهي تنتقل إلينا عن طريق الحواس وتعرف بها
المدركات البعيدة عنا مكانا وزمانا ، وغالبا ما تنتقل إلينا عن طريق أهل
العلم والثقة •

(١) ابن حزم • الفصل - الجزء الاول ، ص ٧ •

ونتكامل هذه المصادر معا وبذلك نكتمل معارف الانسان شريطه
أن نعلم أن الادراك العقلى والحسى ليس عليه استدلال أصلا ،
اما التواتر فيحتاج الى استدلال للتأكد من الصحة والسلامة .

وبخصوص التواتر وطرق التأكد من صحته لا ننسى أن المسلمين
أصحاب تجربة فريدة في علوم الحديث وعلم طبقات الرجال للتأكد من
صحة الرواية ، وسلامة الراوى ، من هنا كان علم الرجال ، وعلم
الجرح والتعديل ، وعلم غريب الحديث ، ومراتب الجرح والتعديل ،
ومراتب الصحيح (١) .

ولا ننسى أيضا أن ابن حزم له كتاب في السيرة ورسائل في التاريخ
مهو من المحققين المراجعين لهذا كان يقف بالمرصاد للذين يروجون
في كتبهم أخبارا ومعلومات غير مدققة والى مثل هذه الخرافات يشير
« أن طائفة أشاعت في كتبها أن الأرض على حوت والحوت على قرن
ثور ، والثور على صخرة ++ وهذا هو الكفر بعينه » (٢) . كما كانت
حملته عنيفة على الفقهاء وأهل الحديث الذين عجزوا عن التمييز بين
أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام وبين المفتريات التى نسبت اليه ++
وبطبيعة الحال لا ننسى أن المسلمين في الأندلس كانوا محاصرين بكثير
من القوى المضادة ، وهذه القوى أشاعت الكثير من الافتراءات
والتجاوزات + من هنا جاءت ردوده الحاسمة والقاطعة على ابن النخيلة
اليهودى ، وردوده على ادعاءات الملل والنحل في كتابه الفصل ++
ولا شك أن وجود ملايين من المسيحيين واليهود داخل الأندلس ،
وتربتها المسيحية السابقة على دخول المسلمين ، وحصارها من الخارج
بممالك الفرنجة لا شك أن ذلك — وغيره — أشاع أفكارا ومعتقدات
لا صلة لها بالقرآن الكريم والسنة الشريفة .

(١) راجع : سعدى ياسين . الايضاح في تاريخ الحديث وعلم
دلائل — المكتب الإسلامى . دمشق — بيروت ١٩٨١ .
(٢) ابن حزم . الفصل — الجزء الثانى ، ص ٩١ .

والحق أن لابن حزم الكثير من الملاحظات العلمية الصائبة التي أثبتت العلوم الحديثة صحتها وسلامتها ، من ذلك حديثه عن أن كل جزء لا بد أن يتجزأ « لهذا ليس في العالم جزء لا يتجزأ ، وكل جزء انقسم الجسم إليه فهو جزء أيضا مهما رق » •

ومن ذلك حديثه عن كروية الأرض « أن أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الامامة لم ينكروا تكوين الأرض ، بل ان البراهين من القرآن والسنة جاءت بتكوينها فقال عز وجل « ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » وهذا أوضح بيان على تكوين الأرض •

وما كان ابن حزم يعلم أنه بعد عشرة قرون من آرائه سيأتى أئمة للمسلمين ينكرون كروية الأرض !!

اذن الرجل اخلاصا لظاهره ، واتباعا لمنهجه ربط بين البداهة ، والحس ، والتواتر وجعل العقل محكا للحكم ، ومقياسا للثبوت • ولا شك أن تجربته ونتائج خبراته ساعده على تعميق منهجه وبلورة أفكاره :

فمنطلقه الفقهى الظاهرى ، وروايته للحديث ، وعمله بالتأريخ ، ووعيه السياسى وممارسته الفعلية للسياسة ، وتكوينى النفسى الشعرى ، ورصيده الثقافى العريض والماسم العميق بالفلسفة والمثل والنحل المعارضة كل ذلك ساعده على تقديم أفكاره بدون تعارض أو تضارب بحيث ما نجده في فكره الفقهى نجده في كتاباته الفلسفية والنفسية ، والتاريخية والسياسية •

وفي رسالة مراتب العلوم يؤكد ابن حزم الفكرة نفسها فطلب العلوم يكون بثلاث وسائل :

السمع ، والقراءة ، والكتاب (١) •

(١) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٦٣ •

وطبعا وضع السماع له أهميته ليس فقط بحكم أن الطفل يسمع قبل أن يقرأ ، بل أيضا لأن الثقافة الاسلامية تعتمد في جانب كبير منها على السماع والتواتر ، وبعد ذلك أضيفت اليها القراءة والكتابة ، ثم الملاحظة والتجريب ، فبحكم أن هذه الثقافة اعتمدت أساسا على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كان المناسب في البداية مجرد السماع والحفظ . وبعد ذلك جاءت مرحلة التفسير والشروح لعلوم القرآن والقراءات مما استلزم الكتابة والتسجيل ، ولهذا كان لابد للمستشرق « دوزى » من القول بأن معظم الأندلسيين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، وهو شيء لم تعرفه بقية دول أوروبا في ذلك العصر (١) .

ووجهة نظر ابن حزم في مصادر المعرفة تتفق الى حد كبير مع وجهة النظر السائدة في الحضارة الاسلامية التي اتفقت — تقريبا — على مصدر يقينى ومصدر غير يقينى وفي داخل كل منهما عدد من المصادر الفرعية (٢) .

رابعا : تصنيف العلوم وضرورة التكامل بينها :

يقسم ابن حزم العلوم الى سبعة أقسام :

علم الشريعة في كل أمة ، وعلم لغتها ، وعلم الاخبار ، وهذه العلوم تختلف من مجتمع الى آخر لاختلاف الثقافة بعناصرها المختلفة . ثم تأتى بعد ذلك أربعة أقسام تتفق فيها جميع الأمم : علم النجوم ، والعدد ، والطب ، والفلسفة .

(١) خوليان ريبيرا . التربية الاسلامية في الاندلس — مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(٢) راجع :

محمد عاطف العراقى . ثورة العقل في الفلسفة العربية — الطبعة الرابعة — دار المعارف ١٩٧٨ ، ص ٦٨ — ٦٧ .

وداخل كل علم من هذه العلوم السبعة تقسيمات وتفريعات :

— فالشريعة الاسلامية تنقسم الى علوم القرآن ، والحديث ، والفقه ، والكلام ، ويلحظ أن ابن حزم أدرج علم الكلام ضمن تصنيفه في حين أن كثيرا من الفقهاء — ولا سيما في العصور المتأخرة — استبعدوه وأنكروه .

— واللغة العربية تشمل النحو واللغة .

— علم النجوم ويضم علم الهيئة ، وعلم أحكام النجوم الذي أنكره ابن حزم ومنع تحويله الى برنامج تعليمي بعكس علم الهيئة الذي اعتبره نافعا في تصريف حياة الانسان من جهة ، وفي التعرف على بديع خلق الله من كواكب ونجوم .. ولا ننسى ما سبقته الاشارة اليه من قول ابن حزم بكروية الأرض ، واعتباره أن القول بأنها على قرن ثور ليس فقط خرافة ، بل كفر محض .

— والطب ينقسم الى طب النفس ، وطب الجسم .

— وطب النفس متصل بالمنطق والأخلاق ويهدف الى تهذيب النفس وتعويدها على الاعتدال بعيدا عن الافراط والتفريط .

وطب الجسم قسمان : طب وقاية ، وطب علاج .

وطب العلاج قسمان : علاج بالأدوية ، وعلاج بالجراحة .

واضح من هذا التقسيم مدى تمثل ابن حزم للتقسيمات السابقة واستيعابه لها :

علوم تتصل بطبيعة الانسان والبيئة والثقافة بما فيها من جوانب دينية واجتماعية ، ولغوية وتاريخية .

وعلوم موضوعاتها مشتركة ومحتواها ممتد بين المجتمعات من غير تفرقة أو تباين .

والإهم أنه بفكره الموسوعي ومنهجه الشمولى أدخل شروعا اعتبرت من وجهة نظر كثيرين ضلالا وخداعا • فالفلسفة والمنطق أدخلهما ضمن تصنيفه (١) ، وفي المحور الخامس الخاص « بمراتب العلوم » سنجد أنه اعتبر ما بعد الطبيعة ختام البرنامج التعليمي ، إلا أنها ما بعد الطبيعة بالمفهوم الاسلامى وليس بالمفهوم اليونانى الوثنى ، أو المفهوم الأفلوطينى أو الغنوصى •

وبعد تصنيف العلوم أكد ابن حزم ضرورة التكامل والتنسيق بينها : فالعلوم تتكامل مع بعضها وكل منها يحتاج الى الآخر • ولا فرق بينها من حيث الهدف حيث أنها جميعا — كما سيتضح — تسعى الى سعادة المسلم فى دنياه ، وفوزه بالجنة فى أخراه ، وحيث أنها جميعا تؤكد وجود الخالق سبحانه وتعالى ، وتكشف عن بديع صنعه ، وعظيم خلقه (٢) •

ونص ابن حزم واضح غاية الوضوح :

« العلوم التى ذكرنا يتعلق بعضها ببعض ولا يستغنى منها علم عن غيره » (٣) •

(١) لهذا تكرر القول مرارا بأنه كاية ثورة فكرية وسط فقهاء المشرق والمغرب ، وموقفه فى هذه النقطة يقف على النقيض من ابن تيمية فى « الرد على المنطقيين » ، ومن ابن القيم الجوزى فى « تلبيس إبليس أو نقد العلم والعلماء » ، ومن ابن الصلاح فى « الفتاوى فى التفسير وفى الحديث والأصول والعقائد » . ولا يقتصر الموقف على الماضى بل يمتد الى الحاضر فموقفه الفكرى هذا يختلف عن كثير من الجماعات السلفية المعاصرة التى تكفر الفلسفة والفلاسفة ، أو الحد الأدنى تعتبر الفلسفة من العلم المنهجى البحث والقراءة فيها . لهذا كان ابن حزم فقيها لديه الكثير من رحابة الصدر ، واتساع الأفق . والكثير من آرائه وتطبيقاته والفكرية يحتاج الى إعادة اكتشاف لعل بعضه يفيد اليوم أكثر مما أفاد بالأمس .

(٢) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٩٠ .

وابن حزم . التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ، ص ١٩٩ .

(٣) ابن حزم . رسائل ابن حزم ، ص ٨١ .

« لا يستغنى منها علم عن غيره » أليست هذه وحدة المعرفة التي أضحت موضعا للبحث والنشر في السنوات الأخيرة ؟
ومن المؤكد أن شيخنا كان يواجه بردود فعل عنيفة لجماعات تمسكت بالعلوم الشرعية فقط ، ورفضت سائر العلوم ، أو العكس صحيح لهذا كانت عبارته الرائعة :

« من طلب علوم العرب وازدري سائر العلوم بمنزلة من ليس في يده من الطعام إلا الملح ، ويظن أنه ليس هناك أفضل منه » *
وهنا نتضح قدرته البلاغية من جهة ، ومهارته في التهكم والسخرية من جهة ثانية ، ويحاول الدفاع عن ضرورة التكامل وعدم التنازل عن بعض العلوم بقوله :

« اذا قال أحد الجاهل : هل تكلم أحد من السلف الصالح في المنطق ؟ قيل له وهكذا سائر العلوم * فما تكلم أحد من السلف الصالح في مسائل النحو ، لكن لما فشا جهل الناس ، وضع العلماء كتب النحو .. وهكذا في سائر العلوم . ولهذا فعلم المنطق من جهله خفى عليه بناء كلام الله عز وجل مع كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجاز عليه الشغب جوارا لا يفرق بينه وبين الحق » (١) .

بهذه القطعية دافع ابن حزم عن سائر العلوم ، ورفض أن يقتصر واحدا منها لأن أصوله يونانية أو هندية .. وبسرعة شديدة يقهم ابن حزم أصحاب الرأي المعارض بالجهل !! وبحدية صارمة يقول أن جميع العلوم ما تكلم فيها أحد من السلف الصالح .

ألم يسبق أن مر علينا في الفصل الأول أن لسان ابن حزم وسيف الحجاج توأمان ؟ * وألم يسبق أن قال ابن حيان عنه أنه يصك معارضه صك الجنادل ، وينشقه انشاق الخردل ، فنفر عنه القلوب ، وتوقع به الندوب ؟

(١) ابن حزم . التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ، ص ٣ — ٤ .

لقد أوتي العلم كله ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم •

هكذا قال عنه بعض أصدقائه ، وهكذا صدقوا • الا أنه كان صاحب قضية اضطرته للحماس والحمية ، بالاضافة الى تكوينه الجسماني النفسى وما أورثه من علل وحساسيات •

وبعد هذا الجزء عن تصنيف العلوم ننتقل لمراتب العلوم أو ترتيب المناهج الدراسية كما تصورهما مبتدئا بتعلم الكتابة • ومنتها بدراسة ما بعد الطبيعة •

خامسا : مراتب العلوم :

لابن حزم رسالة خاصة باسم العلوم ليس المهم فيها الآن غنيتها فى السرد والترتيب ، بل الوقوف عند ملاحظاته وتوجيهاته التى تكشف عن بصيرة تربوية نفاذة ، ووعى نفسى عميق •

ويبدأ هذا التعلم من سن الخامسة ، وبعد ذلك لم يحدد ابن حزم المراحل والمستويات •

وهذه العلوم رتبت الى عشر مراتب تبدأ بتعلم الكتابة وتنتهى بدراسة ما بعد الطبيعة بحيث تقدم الأشياء الأكثر أهمية والتى لا يمكن استمرار التعلم الا بها • ومن هنا تبدأ بالكتابة :

١ — تعليم الكتابة :

اشتراط ابن حزم مدة شروط لتعلم الكتابة من بينها أن يكون الخط واضحا قائم الحروف ، والهجاء سليما صحيحا •• أما المبالغة فى تحسين الخط والعناية به فتزيد لا مبرر له « بل لعله داعية الى التعلق بالسلطان فيقضى دهره فى ظلم الناس ، وأما فى تسويد قراطيس بتواقيع بعيدة عن الحق ، فيضيع زمانه باطلا » (١) •

(١) ابن حزم • رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٦٥٠ •

والحق أن ابن حزم في برغامجه كان وظيفيا لأقصى الحدود :

فالكتابة بالقدر الذي يوضح الفكرة بجلاء وسلامة بدون مبالغة أو تزويق ، وبدون تزيد أو مبالغة * * والطريف أنه يربط المبالغة في تجويد الخط بإمكانية أن يعمل الفرد في خدمة سلطان جائر يكتب له الملاحظات والتعليمات ولذلك يخسر دينه ويضيع حياته * .

ولا شك أن حساسية ابن حزم والظروف التي مر بها دفعته الى هذا الحرص وهذه المبالغة * * لهذه أول مرة أطلع فيها أن جودة الخط وتزويقه يمكن أن تربط الفرد بسلطان جائر يسبب له المتاعب في الدنيا والآخرة * .

من هنا يتضح لنا أنه كان مفكرا ملتزما ، وفقهيا مدققا لا ينسى السياسة أثناء تعلم الكتابة ! !

وهذه الوظيفية سوف تتضح أكثر وأكثر عند تعلم النحو * .

٢ — تعلم القراءة :

والمهم فيها المهارة بحيث يقرأ ما يكتبه بوضوح وسلامة * .
وتعلم القراءة يحتاج الى حفظ القرآن الكريم مما يدرّب على القراءة العامة من جهة ، ويمرن اللسان على التلاوة من جهة أخرى * .

ولبعض مفكرى الأندلس تجربة خاصة في تعليم القرآن الكريم تختلف عن المشرق * * وقد عبر القاضي أبو بكر بن العربي عن ذلك في عدد من مؤلفاته بحيث يبدأ الطفل بتعلم الألفاظ ومعانيها ، وأساليب تكوين الجملة ، وقواعد اللغة ، مع حفظ أشعار العرب وأمثالها * * وبذلك تخلص لغته من الأخطاء واللحن * . وإذا كان مثل هذا الأمر ليس مهما في عصور الاسلام الأولى ، فإن الأمر اختلف بعد ذلك لتعدد الأجناس واللغات ، وتداخل الحضارات والتيارات * * .

ثم ينتقل ابن العربي لشرح قيمة تعليم الحساب نظرياً وعملياً ،
ثم فقهياً واجتماعياً . . بعد ذلك ينتقل الطفل لتعلم الشعر بتفصيل
أكثر ودراية أكبر . .

بعد هذه المراحل الثلاث يبدأ في دراسة القرآن الكريم حيث أن
الوسائل السابقة ، ستساعده على الفهم والتفسير . .

ووجهة نظر ابن العربي أنه يستحيل على طفل صغير ، غير مزود
بالمهارات الأساسية أن يفهم القرآن ويتفاعل معه بعمق ودراية . .
من هذا اقترح أن توجّل دراسته لمرحلة نضج نسبي ، وبعد ترسيخ
نسبي ، وبعد ترسيخ أساسيات ودعائم (١) . .

ورغم أن ابن خلدون أثنى على هذه الطريقة إلا أنه أوضح صعوبة
تطبيقها نظراً لاستحكام العوائد والتقاليد التي تبدأ بالقرآن الكريم
اثاراً للتبرك ، وتحقيقاً لأهداف كثيرة لا يمكن تحقيقها إلا في الصغر . .

بطبيعة الحال ما كتبه القاضي ابن العربي لا تمثل التجربة
الأندلسية في التعليم بقدر ما تمثل نقده ووجهة نظره ، ولعل الأندلس
بعد ذلك أخذت ببعض هذا التصور فطبقت في برامجها . والحد الأدنى
أنها ما كانت تدرس القرآن الكريم بمفرده من غير قراءة وكتابة ، ولغة
وحساب ، وشعر وأمثال . .

ولابن حزم في كتابه « التقريب لحد المنطق » وصف لتجربة مثيرة
قام بها والد معلمه أحمد بن محمد بن عبد الوارث ، فقد قام ذلك المعلم
الجليل بعمل حروف مجسمة من القير لولد له ولد أعمى ، ثم ألمسه أياها
حتى وقف على صورها بعقله وحسه ، ثم ألمسه تراكيبها وبذلك كان
يقراً بنفسه مما زفّع عنه غصة عظيمة (٢) .

(١) محمد عبد الحميد عيسى . تاريخ التعليم في الأندلس — مرجع
سابق ، ص ٢٣٨ — ٢٤١ .
(٢) ابن حزم : التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

وقد دفعت هذه القصة الزميل الدكتور موسى ريجان لكتابة مقالة عن هذا الموضوع يشيد فيها بفضل الأندلس في تعليم القراءة للمكفوفين ^(١) وهي طريقة استمرت سنوات وسنوات وأتفاد منها المشرق ثم أوربا . وفي التجربة السابقة دليل واضح على صلة المدركات العقلية بالادراكات الحسية وكيف أن كلا منهما موصل للآخر ومدعم له .

٣ — تعلم النحو :

إذا كانت اللغة ألفاظا يعبر بها عن المعاني « فيقتضى من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة ، ويقتضى من اللغة المستعمل الكثير التصرف ، أما التعمق في علم النحو ففصول لا منفعة بها بل هي مشغلة عن الأوكد » .

فالغرض من النحو المخاطبة ، وما بالمسرء حاجة اليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم ^(٢) .

واضح من النص السابق الوظيفية الحاسمة :

لنأخذ من النحو الجزء المناسب لتعليم التخاطب السليم ، والقراءة الصحيحة والكتابة السليمة ، أما المتوسع في الأمثلة والشواذ ، والاختلافات والمدارس النحوية ففصول لا منفعة منه من جهة ، وانشغال عن الأمور الأهم من جهة أخرى .

وكل الذين تناولوا هذا الجزء من « مراتب العلوم » أثنوا عليه ومدحوا فيه ^(٣) . ولهذا اقترح ابن حزم كتاب « الواضح »

(١) موسى رزق ريجان . الأندلسيون أسبق من برايل في اختراع طريقة القراءة باللمس . مجلة كليتي الشريعة وأصول الدين والعلوم العربية والاجتماعية . المملكة العربية السعودية . القصيم . العدد الثاني ١٩٨٢ ، ص ٥٨٦ — ٥٩٦ .

(٢) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٦٥ .
(٣) عبد الكريم خليفة . ابن حزم الأندلسي — مرجع سابق ١٦٦ — ١٦٧ . وعبد البديع الخولي . الفكر التربوي في الأندلس — مرجع سابق ، ص ٠٠٠ .

للزبيدي — وقد تولى القضاء بأشبيلية — أو كتاب « الموجز » لابن السراج — من تلاميذ المبرد وتخرج عليه بعض أئمة النحويين في المشرق في القرن الرابع • وواضح من وصف ابن حزم أنه يتحدث عن الإيجاز والوضوح ، بدون حاجة إلى تعقيدات وتفريعات نشوش أكثر مما تنظم ، وتهدر أكثر مما تفيد •

والحق أن فكرة ابن حزم نادى بها كثيرون من قبله ومن بعده من ذلك خلف بن حيان الأحمر البصري في رسالة « مقدمة في النحو » ، ومن ذلك ما أكدّه الجاحظ في رسالة من رسائله ، وما أكدّه ابن مضاء القرطبي القرطبي وغيرهم كثير بحيث يقدم للمتعلّم القدر الكافي للسلامة من فاحش اللحن ، وجهل العوام •

ولو كان المربون — في الماضي والحاضر — على وعى تام بهذه القاعدة الوظيفية لأفاد الملايين من أبناء العربية ومتعلميها • وفي تقديرى الخاص أن كتب النحو ما زالت بها كثير من القواعد والتوجيهات التى تسبب اضطرابا للمتعلّم أكثر مما تفيده • وبعض مدارسنا ومعاهدنا ما زالت متمسكة بعدد من الكتب فى النحو مستواها يعلو كثيرا على مستوى دارسيها • والنتيجة النهائية — بالملاحظة وليس بالبحث التطبيقي — أن عددا كبيرا من الخريجين لا يتقن هذا الزخم الهائل من القواعد خاصة أن فرص الممارسة والتطبيق قليلة •

ورغم مضى ألف عام على ما كتبه ابن حزم إلا أن القضية ما زالت ساخنة حادة بين مدارس النحويين ، ثم بين النحويين والتربويين •

ومن وجهة نظر أهل النحو واللغة أن التربويين أفسدوا تدريس النحو وصرفوا التلاميذ إلى مجموعة قواعد سطحية ، ونصوص فقيرة لا تعطى فرصة لاكتساب ذوق لغنى أو حسن نحوى ، وإلى ذلك يشير عالمنا الكبير الدكتور « شوقي ضيف » :

« لقد أخفقت الطرق التربوية الحديثة في تعليم النحو ، بينما نجحت طريقة الأسلاف في تعليمه بواسطة متونه ومختصراته وهي تخلو من كل الطرق الحديثة ، ومع ذلك كانت تتمثل الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسرا ولا مشقة • وكأنما عقود المتراصة المتناسقة في هذه المتون نثرتها الطرق التربوية الحديثة ، فخصاع من التلاميذ سياق النحو ونسقه القديم » (١) •

وملاحظة الدكتور شوقي ضيف — رغم صحة نتيجتها — لا تعنى أن كتب النحو القديمة كانت السبب في تفوق تلميذ الماضي على تلميذ الحاضر ، بل هناك عشرات العوامل التربوية والنفسية ، والاجتماعية والتعليمية مرتبطة بها •

والمؤكد أن كل اجتماعات وندوات طرق تدريس النحو ، وتيسير النحو العربي حفلت بعشرات المناقشات الصاخبة حول هذا الموضوع بين مؤيدين للتبسيط ، ومؤيدين للتقليد (٢) • • ورغم أن ابن حزم لم يكن معلما محترفا ، أو نجويا متخصما إلا أن بصيرته وجماع خبرته قادته الى قاعدة ذهبية :

« الغرض من النحو المخاطبة ، لذلك فالتعمق فيه فضول لا منفعة بها ، ومشغلة عن الأوكد » •

بطبيعة الحال كاتب هذه السطور لا يخفى فرجه واعجابه بهذه القاعدة التي خطها ابن حزم منذ ألف عام وما زلنا نتخبط في تدريس النحو العربي ، ومستوى طلابنا يتدهور عاما بعد عام نحوا وتعبيرا ، وقراءة وكتابة ولم نصل إلى الايقاع السليم لتدريس اللغة العربية

(١) شوقي ضيف • معنى • سلسلة كتاب اقرأ العدد ٦٦٩ • أغسطس ١٩٨١ — دار المعارف ، ص ٥٠ — ٥١ •
(٢) راجع التفاصيل :

لتحسين بوننس ومحمود الناقة • أساسيات تعليم اللغة العربية — دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٧ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٩ •
(م ٩ — ابن حزم الإندلسي)

بطريقة تجعلها وظيفة حية ، ومتدفقة سلسلة في السنة التلاميذ ومن خلال أقلامهم .

٤ — تعلم اللغة :

« اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع صحاح وعبارات عن المعانى .. والاقتصار على المقدار الجارى من اللغة والانصراف الى الأهم والأوكد من سائر العلوم أولى .. » (١) .

وابن حزم هنا يختلف نسبيا عن النحو .

فرغم أنه يطالب بدراسة كتب محددة يستعين بها الدارس على المستعمل من اللغة ، الا أن غير المستعمل في اللغة لا ضرر منه لأنه يفيد في فهم ألفاظ مستغلقة ربما يصادفها المتعلم ، بعكس الشاذ من القواعد النحوية التى ربما تؤدي الى عدم تركيز على القواعد الأساسية والهامة .

وهنا نلاحظ أيضا الوظيفية والاجرائية ولكن بقدر من الاتساع والمرونة يتناسب مع كون اللغة « كلها صحيحة وذات أوضاع صحاح » .

بطبيعة الحال شيخنا لا يقلل من أهمية النحو كنحو واللغة كلغة ، ولكنه يطالب بوضع حد أدنى من المفاهيم والأساسيات للمتعلمين منعا للحيرة ، وغلقا لباب التشقت ، أما المتخصص في النحو « والذى يجعله معاشا له فذلك يحق له التعمق والتوغل ، أما القارئ والمتعلم العادى فلا بد من تقديم الحد الأدنى المناسب له من المفاهيم والقواعد » .

وابن حزم بذلك يقترب من مدارس المناهج الحديثة مثل مدرسة « التنظيم البنائى » التى تطالب بتقديم الحد الأساسى اللازم للتعلم والفهم ، بدون توغل في قضايا جدلية نفعها محدود ، وربما تأثيرها ضار . ووجهة النظر هذه مبنية على أن المفاهيم الأساسية تنظم

(١) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٦٥ .

الأشياء والأحداث ، والمعارف والظواهر في عدد قليل من المفاهيم وبذلك نقتصد في المادة المقدمة ، على أساس توفير الوقت والجهد للياديين أخرى ومجالات أهم (١) .

اذن الاختصار والتركيز الذي يطالبنا به ابن حزم يساعد على البلورة والتركيز ، والتمثيل والفهم بدلا من الذوبان وسط بحار متلاطمة من الاختلافات والتمييزات .

• — تعلم الشعر :

هنا نتضح لا الوظيفية فقط ، بل الأخلاقية أيضا .

لهذا فلا ينبغي أن يقدم للمتعلم الا شعر الحكم والخير فهي « نعم العون على تنبيه النفس » .

وهناك أربعة أنواع من الشعر نهى عنها ابن حزم :

١- شعر الغزل وبخاصة بالذكر ، وصفة الخمر والخلاعة ، لأنها تستهل الفسوق وتهون المعاصي ، وتدعو الى الفتنة وتلهي عن الحقائق مما قد يؤدي الى الهلاك والفساد في الدين ، وتبذير المال في الوجوه الذميمة وتضييع الواجبات .

وهنا ربط بين افساد الدين ، وافساد الدنيا .

٢- شعر الصعلكة وذكر الحروب مما يهيج الطبيعة ، وربما أدى الى اهلاك النفس في غير حق ، والى خسارة الآخرة مع اثارة الفتن ، والشر ، والى الظلم وسيفك الدماء .

(١) راجع :

جيروم برونر . نحو تربية سليمة . ترجمة محمد سامي عاشور . النهضة المصرية .

— J. S. Brunel, Towarda Theory of Instruction. Harverd University Press. 1966.

— شعر التغرب مما يسهل التجول والتغرب ويعمق في المبرء
ما يصعب عليه التخلص منه ♦

— شعر الهجاء لما قد يثيره من أفساد للمرء واساءة للآخرين ،
وفيهِ حلول الدمار في الدنيا والآخرة ♦

أما المدح والثناء فهما من المباح المكروه ♦♦ المباح ليهما التذكير
بفضائل الميت والممدوح ، والمكروه فيهما لأن أكثرهما كذب ، ولا خير
في الكذب ♦♦ والميزة في كل الأحكام السابقة أنها صدرت من شاعر
وفقيه ♦♦ بطبيعة الحال كان نموهُ الشعري أسبق من نموهِ الفقهي !!
فمن خلال الفصل الأول تبين لنا كيف كان يغدو هو ورفاقه في مدينة
أو ضاحية الزهراء في الجانب الشرقي من قرطبة يتندرون الشعر
ويتسامرون به ♦ لهذا كثيرا ما وصف ابن حزم بأنه أديب الفقهاء ،
وفقيه الأدباء ♦

من هنا جاء وصف ابن حزم لأتباع الشعر وصنف الخبير الممارس
« فيما يظن ظان أن الشعر علم جهلناه ، فذهمناه بل العكس هو الصحيح
فقد توسعت في روايته ، وتمكنت من معانيه ، وأبدعت في نظمه
بسهولة ويسر » ♦

الا أن التفقه في الدين ، والاعتماد على سنة سيد المرسلين
جعلت ابن حزم — كسائر أئمة المسلمين — يحذر ويندد بألوان الشعر
الخارج أو المبيح على الفجور والفسق ♦♦ ولا ننسى أن شعرنا العربي
برع فيه كثير من المربة والفجار ، وبربوا نجشهم بكثير من الأسفار !!
فكثير من المنكرات وأوجه الشذوذ الخلقى والاجتماعى ، والنفسى
والجنسى قدمها البعض على أنها أمور طبيعية غريزية وتعبير عن طبيعة
الانسان دون حرج أو حياء ♦

من هنا شباغ عن أبي نواس :

— ١٢٣ —

أنا مالى وللرباط وللتغزو والفتدا
لستت مثن يطوف في عرفات ولا منى

وذكر له الجرجاني أيضا :

أترك لذة الصبأ نقدا

بما وعدوه من لبن وخمر

حياة ثم موت ثم بعث

حديث خرافة يا أم عمرو !!

من هنا كان لابد من تصدى الفقهاء وأهل الدين لهذا الفسق
والفجور ، ومن هنا كان المنع والتحريم ليس فقط عند ابن حزم ، بل
عند كل المتسكين بدينهم القابضين عليه •

ونهى ابن حزم عن الغزل بالذكر يذكرفنا بما قاله بعض الكتاب
عن حرص أبيه على تعليمه وسط الجوارى والنساء ، ثم بعد ذلك عند
الشيخ الورع الحصور أبى الحسين بن على الفاسى كل ذلك خوفا من
اختلاط ابنته بجماعة ستوء أو زمرة أنحراف ، وخاصة أن هذه الجماعات
كانت شيئا مألوفها فى حواضر الأندلس حيث الغنى والثراء ، والاختلاط
والتنحرر ، والجوارى الشفر والسفر ، والعلمان من مختلف الأجناس •

٦ — تعلم الحساب :

بعد النحو واللغة ينتقل المتعلم الى علم العدد شريطة أن يتمكن
ويحذق الضرب والقسمة ، والجفع والطرخ والنسبة ، مع أخذ طرف
من المساحة مع قراءة كتاب أقليدس ومطالعة كتاب المجسطى
لبطليموس الذى عربه حنين بن اسحاق •

ودراسة الحساب والمساحة ، الهيئة والعدد تحقق ثلاثة أهداف :

— معرفة مساحة الأرض ومواقعها ، تركيب الأفلاك ودورانها ،
ومراكزها وأبعادها ، وأسباب زيادة الليل والنهار ، والمد
والجزر ، ومنازل الشمس والقمر •

— فهم صنعة البارئ سبحانه وتعالى وتقدير بديع صنعه •

— تحقيق منفعة جلب المياه ، ورفع الأثقال ، وهندسة البناء ،
واقامة الآلات (١) •

مثل هذا التصنيف يكشف عن حساسية تربوية وفهم منهجي :
المعرفة ، ثم الفهم ، وأخيرا تحقيق المنفعة •

أو الإدراك المعرفي ، والإدراك الوجداني ، ثم المهارات
النفسحركية •• ورغم أن الرجل لم يكن معلما محترفا إلا أنه يملك
الحس التربوي ومهارة التحليل وتحسن الاستفادة ممن سبق من المربين
المسلمين وغير المسلمين •• ولا شك أن المراحل الثلاث التي يتحدث
عنها تلتقي مع النتائج النفسية التربوية الراهنة في كثير من الأصول
والقواعد •

فإنحو لا يقصد لذاته بل للتخاطب وتقويم اللسان في القراءة
والكتابة •

و بحساب والمباعدة والفلك من أجل التطبيق العملي في الحياة
اليومية وخلق البيئة •

ولقد سبق القول بأنه لم يكن مطلوبا من الرجل ألا يغالى في
النظريات النفسية والتربوية ، بل تكفيه الإشارة وإيجاز التعبير ، وكان
الرجل في ذلك موفقا كل التوفيق ، أفاد من تجارب وخلاصات المربين •
وفي نصه السابق نجد عبارة « يقرأ كتاب أقليدس قراءة متفهم
له ، واقف على أغراضه » • ثم عبارة « يطلع كتاب المجسطي » •

(١) ابن حزم • رسائل ابن حزم — مرجع سابق ، ص ٦٧ — ٦٨ •

فالحساب والهندسة أساس لا بد من الارتكاز عليه بفهم وعمق ،
تمهيدا لقراءة الفلك ومعرفة آثار صنعة الباري سبحانه وتعالى وكل
ذلك دليل على فهم عميق بمراتب العلوم وكيف أن كل مستوى منها
يعتمد على مستويات دونه في السلم الهرمي •

٧ — علم النجوم :

الاشتغال بأحكام النجوم لا معنى له • ولننظر في دراسته
ان كان حقا أو باطلا فان كان حقا فلا فائدة منه الا باستعمال الغم
والبؤس والنكد ، لأن الانسان لن يستطيع تغيير مصيره وقدره
المحتوم •• وان كان باطلا فلا يصح الاشتغال به •

وينتهي ابن حزم الى أن من يلجأ لعلم النجوم لمعرفة الغيب
فليس ذلك من العلم في شيء •

فالعلم علمان : علم برهان وعلم تجارب •

ومعرفة النجوم ليست من البرهان في شيء ، ولا من التجارب
في شيء •• وحتى اذا كانت فيها مصادفة وإتفاق فلا يدخل هذا في باب
التجارب ، لأن التجربة « لا تكون الا بتكرير الحال مرارا كثيرة جدا
على صفة واحدة لا تستحيل أبدا » (١) •

ويكرر ابن حزم معنى التجربة في كتابة « الفصل » قائلا :

« التجربة لا تصح الا بتكرار كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس
الى الاقرار به •• ولا يمكن هذا في القضاء بالنجوم لأن الحالات
التي يسترشدون بها لا تعود الا في عشرات آلاف من السنين ، من
هنا لا يصح أن يطلق عليها اسم تجربة » •

واعترض ابن حزم على القضاء بالنجوم اعترض شرعى اسلامي

(١) المرجع السابق ، ص ٧١ •

لا لبس فيه ولا غموض ، هالتطير والتشاؤم وقراءة النجوم كل ذلك منهى عنه بالقرآن الكريم والسنة المطهرة • مصداقا لقول الصادق الأمين « كذب المنجمون ولو صدقوا » •

والفيلد أن ابن حزم ناقش القضية بطريقة منطقية بحثة لم يستشهد فيها بآية أو حديث ، بل لجأ للتحليل المنطقي والدليل الاجرائي (١) •

فقراءة النجوم لا تعتمد على ضبط تجريبي ولا على برهان عقلي •• ولا شك أن معنى التجربة عند ابن حزم واضح محدد ، مضبوط منظم « تكرير الحال مرارا كثيرة على صفة واحدة لا تستحيل أبدا » •• أو « تكرار كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس الى الأقرار به » •

فعلاقة الاطراد بين ظواهر محددة تنتج عنها علاقات مظرمة ثابتة يثق بها الناس بالحنس والعقل •

وواضح أن رفض ابن حزم مرتبط بطرق اكتساب المعرفة السابق معالجتها منذ صفحات مما يوضح لنا أن للرجل في كل كتبه ورسائله منهاجا واحدا وفكرا مطردا •

٨ - تعلم المنطق والطبيعيات :

هنا يربط ابن حزم ربطا جيدا بين المنطق والطبيعيات •

فعندما يصل المتعلم الى درجة النضج واستقرت عنده مهارات القراءة ، والكتابة واتضحت لديه مفاهيم الحساب والمساحة والهيئة يبدأ في دراسة المنطق من جهة ، والطبيعة والتشريح من جهة ثانية :

(١) من هنا تكرر مرارا في هذه الدراسة ان ابن حزم ثورة فكرية ومدرسة ذات نهج خاص سواء في الحوار مع المسلمين ، أو غير المسلمين • والذي لا شك فيه ان منهجه في الجدال والافتناع ، الملاحاة والمحاورة منهج يحتاج الى درس وتحليل ، افادة وهضم بحيث يمكن الاستعانة به في كثير من المواقف والدراسات •

— فمن طريق المنطق يقف على الحقائق كلها ويميزها عن الأباطيل
تمييزا لا يبقى معه ريب .

وهنا دافع حار عن المنطق والعقل ولأ ننسى أن شيخنا صاحب
كتاب « التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامة والأمثلة
الفقهية » وبذلك حاول تقريب المنطق وشرحه بلغة العامة من جهة ،
مع ربطه بالأدلة والأمثلة الفقهية من جهة ثانية .

وهنا تظهر عبقرية ابن حزم واستواؤه على قمة النضج في
الحضارة الإسلامية : الجمع بين المنطق العقلي والدليل الفقهي .

وإذا كان المنطق ثمرة التجربة اليونانية الحضارية ، فإن الفقه
ثمرة التجربة الحضارية الإسلامية تعالفا عند بحرارة ودفع ،
وبانسجام ومودة دون تعارض أو تضارب ، أو تضاد ومواجهة .

وفي حين أن مدارس إسلامية صادرت على المنطق واستأصلته من
حياة المسلمين ، فإن فقيها الظاهري دافع عنه وقربه للعامة ، وحاول
جعله أداة قوية من المختون والأفهام ، والألنطة والاهكام .

وعلى قدر ما كان صارما ضد الاعتماد على النجوم ، على قدر
ما كان مؤيدا لاستخدام المنطق والبرهان وللوقوف على الحقائق كلها ،
وتمييزها من الأباطيل فمن طريقه عرف ما البرهان وما الشغب .

وإذا كان المتصوفة جعلوا بينهم وبين المنطق حجابا عازلا فالسبب
في ذلك أن لديهم أسلوبهم الخاص المعتمد على الذوق والوجد ،
والكاشفة والبصيرة . ولذلك فلهم بعض الحق أو كل الحق — من وجهة
نظرهم — للاعتراض على المنطق والمصادرة عليه فهم ليسوا بحاجة
إليه ، والمنطق ليس بحاجة إليهم !!

ولكن المثير والمدهش أن يصادر أصحاب القياس الفقهي على
استخدام القياس العقلي !!

ولم يقتصر الأمر على المنطق بل امتد الى استخدام المصطلحات المنطقية من هنا جاءت فتوى « ابن الصلاح » : « ان استخدام المصطلحات المنطقية من المنكرات المستبشرة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية افتقار الى المنطق أصلاً . ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها ، حيث لا منطق أو منطقة ، ولا فلسفة أو فلاسفة .. » (١) .

والشيء نفسه نجده غاية الوضوح في كتاب ابن تيمية « الرد على المنطقيين » من هنا شن الفقهاء هجومهم الساحق على المنطق والمنطقة ، والفلسفة والفلاسفة ، ورغم أن ابن حزم — كما تبين في الفصل السابق — كان ضد استخدام القياس الفقهي ، فإنه على العكس من سائر الفقهاء ألف كتاباً للترويج للمنطق وإشاعته بين الناس ، بدلاً من إبطاله والمصادرة عليه !!

لهذا السبب — وغيره — كان هجوم فقهاء الأندلس المالكية على ابن حزم :

فهو في عداد الفقهاء ، الا أنه يتحدث حديث المنطقة والفلاسفة . لذلك — وغيره — كان الهجوم والطرده ، والنفي والسجن فلم يقتصر من الناحية السياسية على الولاء الأموى ، بل امتد في الناحية الفكرية الى الولاء المنطقى والفلسفى ، فكيف يحتمل ؟ وكيف يكرم ؟

أذن الرجل حاول إشاعة المنطق وتبسيطه الى الناس ، مع عداوة شديدة للخرافات والأباطيل ، والمزاعم والدسائس التى وضعت بذكاء وخبث وسط عشرات الكتب في الحضارة الاسلامية .

ولم يقتصر الأمر على المنطق بل ربط بينه وبين النظر في الطبيعيات وقراءة كتب التشريح للوقوف على محكم الصنعة وتأثير الصانع ، واختيار المدبر وحكمته وقدرته .

(١) ابن الصلاح . فتاوى ابن الصلاح في التفسير والحديث والاصول والعقائد — القاهرة ١٩٢٨ ص ٣٥ .

من هنا يكرر ابن حزم الربط بين الظواهر الطبيعية والبرهان العقلي وبين التعرف على قدرة الله سبحانه وتعالى وتأكيد كريم صنعه .

٩ — تعلم التاريخ :

الطريف في الأمر أنه وضع دراسة التاريخ بعد المنطق والطبيعة . وعلى الرغم من أن الفقيه أقرب للمعلوم الاجتماعية من الطبيعية إلا أنه — رغم كونه مؤرخا — قلب الآية . ولعل من أسباب ذلك أن فهمه للتاريخ يحتاج الى تمييز وتدقيق في الروايات لمعرفة أسباب الاضطراب ودواعي الاختلاف ، ومثل ذلك يحتاج نضجا ورشدا ، ومعرفة ودراية . لذلك طالبنا ابن حزم بتأخير دراسة التاريخ حتى تكتمل عند الدارس مقدرة الحكم والقدرة على التمييز .

والهدف من دراسة التاريخ عند ابن حزم — كسائر المفكرين المسلمين ^(١) — هدف أخلاقي وسياسي لدراسته تفيد في معرفة أسباب ذهاب الملوك الظلمة المعجزة « فيحدث له فيها زهد وقلة رغبة » . وفي الوقت نفسه يقف على حمد المتقين للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للردائل فيكرهها ^(٢) .

(١) تكررت نفس هذه الفكرة عند المقرئ والمسموعي وابن الأثير والنويري وابن خلدون والجبرتي .
راجع :

أبو الفتوح رضوان . التاريخ وفكرة التفاهم العالمي . الفته لجنة من الخبراء بتكليف اليونسكو وشارك في تأليفه وترجمته أبو الفتوح رضوان . المطبعة الأميرية ١٩٥٤ ، ص ٣ — ٥ .

(٢) ابن حزم . رسائل ابن حزم — مرجع سابق
ويلاحظ ان هذه السمة الأخلاقية لدراسة التاريخ كانت هدفا لكل الدراسات التاريخية عند المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى ، وحتى الآن ما زالت هذه السمة هدفا عند كثير من الدارسين للتاريخ من أصحاب الفكر الديني . ولم ينفصل هذا الهدف الا على يد المدارس الوصفية والحادية والتطورية منذ نهاية القرن الثامن عشر .

ولا يقتصر الأمر عند ابن حزم على اختتام وإقدام ، بل ان فيه قدوة وعبرة فيرغب في الحاق اسمه بأسماء الصالحين ، ويمقت أن يسجل اسمه مع المفسدين •

ويتضح الاهتمام بالتاريخ عند ابن حزم عندما يقول ان التاريخ علم سهل جدا ومتشط ومتنزه ، لذلك لا ينبغي لأحد أن يخلو منه ، بل يجعله متعة وراحة ، وتجديدا للنشاط ودفعاً للسأم •

ولا شك أن وجهة نظر ابن حزم فيها كثير من الوظيفية التي يمكن أن تخدمنا في حياتنا المعاصرة :

فالكثير من الطلاب والشباب ينصرف عن دراسة التاريخ • وحتى الذين يدرسونه أحياناً لا يتعمقونه ، ومن هنا تصبح دراستهم له قليلة الفائدة ، وربما عديمة الجدوى •

بطبيعة الحال هناك أهداف أخرى سياسية واقتصادية لدراسة التاريخ ، الا أن الوظيفة الأخلاقية للتاريخ بحاجة اليوم الى رعاية وعناية تؤجبه للنشء وصقلا للأجيال • وحتى خلال المفهم السياسي للتاريخ ينبغي التركيز على الجوانب الأخلاقية بحيث تتضح لدارسيه المزايا والعيوب ، والفضائل والنقائص ، والعيل والدسائس التي تمت خلال مراحل التاريخ • واذا كان ابن حزم — وسائر المؤرخين المسلمين — ركزوا على الفائدة الخلقية أو ما سمي بالتاريخ وتقويم الخلق « (١) ، فاننا اليوم بحاجة ماسة لهذا الهدف مع أهداف أخرى يجب تحقيقها من دراسة التاريخ •

١٠ — دراسة ما بعد الطبيعة :

وأخيرا تأتي الحلقة الأخيرة في البرنامج التعليمي عند ابن حزم متناولة ما بعد الطبيعة :

(١) أبو الفتوح رضوان . التاريخ ومكرة التفاهم العالى — مرجع سابق ، ص ٣ •

ما بعد الطبيعة بالمفهوم الإسلامى وليس بالمفهوم اليونانى فحسب
فهل العالم محدث أم قديم ؟

واذا تمين أنه محدث ، فهل الإحدث واحد أو أكثر ؟

فاذا تيقنا أنه واحد ، فهل النبوة ممكنة أو واجبة أو مميتة ؟

فاذا حصل أنها ممكنة وجب النظر فى النبوات ••

فاذا حصل له ذلك ، وقف عند من صحت له البراهين بنبوته •

هذه بعض ميادين الميتافيزيقا الاسلامية التى طوعها فلاسفة
المسلمين لخدمة أهدافهم العقيدية والتوفيق بين مباحثها اليونانية وبين
دينهم الحنيف •

ورغم أن غالبية الفقهاء فى عصر ابن حزم هاجموا ما بعد
« الطبيعة » ، واعتبروها من تلبيس إبليس ، ومن مباحث الوثنية
اليونانية إلا أن ابن حزم ربطها بالعقيدة ومطالبها تدعيما للوحدانية ،
وترسيخا للنبوة •• وبذلك كان مخاضا لدينه ورسالته الفقهية ، وفى
الموقت نفسه مرتبطا بإخلاصة علوم عمره ، وتجارب أمه ، نازعا منها
« قتيل الانفجار » الذى كان يتخوف منه سائر الفقهاء والمتصوفة ••

ومن خلال هذا البرنامج التعليمى نلاحظ :

ب - الاهتمام الشديد بالوظيفية ومصالح الحياة •

— تقديم القدر المناسب بدون دخول فى التفاصيل والحشو الذى
يحمل المتعلم أعباء لا مبرر لها ، ويصرفه عن الأمور الهامة •

— ضرورة ربط هذه العلوم بأهداف شرعية وخلقية ، فردية
وجماعية •

— الإنفتاح العقلى والاستفادة من سائر العلوم بدون جسدية
أو خوفا عدا علم أحكام النجوم •

— الاعتماد على التحليل المنطقي والاقناع العقلي بدون لجوء للنصوص الدينية •

— تأخير المواد ذات السمة التجريدية الى آخر البرنامج •

— توجيه هذه العلوم التوجيه السليم بحيث تشترك جميعا في تأكيد وحدانية الله ، وثبوت النبوات ، ليس فقط من علوم الشريعة ، بل من التشريح والطبيعات ، الأفلاك والميتافيزيقا •
ومن الواضح أنه كان أكثر وعيا والتزاما من بعض المعاصرين :

فالبعض يتحدث عن تدريس المواد الشرعية فقط ، بينما الرجل كان يوجه جميع المواد الدراسية بحيث تخدم الأهداف الشرعية وتؤكد وحدانية الله وبديع صنعه •

والذى يؤخذ على هذا البرنامج التعليمى المتكامل أنه لم يحدد مراحل عمرية للدراسة ، بل اكتفى بتحديد سن البداية فحسب •• ويبدو السبب فى كونه مفكرا أكثر من كونه سياسيا أو اداريا ، فلقد وضع مراتب وقواعد نظرية ولم يكن فى موقع سلطة أو رئاسة ، أو حكم وتوجيه •

سائلا : ضرورة تبسيط العلم :

العلم والتعليم محور أساسى فى الحضارة الاسلامية ، عليه اعتمدت ومنه انطلقت •• واذا كانت بعض مدارسنا تحدثت عن علم الخاصة وعلم العامة ، عن علم مستور وعلم مشاع ، فان ابن حزم لم يعرف هذه التقسيمات التى لجأ اليها المتصوفة والشيعية ، أصحاب الفلسفة والكلام •

وفقهاء السنة بصفة عامة ليس لديهم أسرار يخفونها عن الناس ، نل هم مكلفون بإذاعة علومهم وتوجيه كل فئة المسلمين • وذلك فارق

أساسى بين مدرسة الفقهاء والمحدثين ومدارس الصوفية والشيعة ،
أو الفلسفة والكلام •

وإذا كان ابن حزم حريصا على اذاعة المنطق وتقريبه الى الناس ،
فنفس الشئ ينطبق على العلم ككل بحيث يشاع ويذاع ، ويقدم للوارد
ويسهل للغادى ، وللصغير والكبير ، وللرجل والمرأة ، وللحر والعبد ،
والمغنى والفقر بدون تمييز أو تفرقة •

ولا ننسى أن ابن حزم ابن الحضارة الاسلامية الأندلسية التى
حاولت تقديم العلم للكافة وبرع فيها كثير من أبناء الفئات المحزومة ••
لهذا لمعت أسماء كثيرة من الجوارى والاماء فى ميدان العلم بما فيه من
توحيد ولفقه ، وحديث وقراءات •

وفى رسالة التقريب لحد المنطق دعوة لتبسيط العلم ونشره ، وحث
للاغنياء على توفيره للقاصد والراغب •

« الحظ لمن أثر العلم وعرف فضله ، أن يسهله جهده ، ويقسره
بقدر طاقته ، ويخففه ما أمكن • بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع
طرق المارة ، ويدعو اليه فى شوارع السابلة ، وينادى عليه فى مجامع
السيارة ، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ، ويجزى الأجور
لمقتنيه ، ويعظم الاجمال عليه للباحثين عنه ، ويسنى مراتب أهله ، صابرا
فى ذلك على المشقة والأذى ، لكان ذلك حظا جزيلا وعملا جيدا واحياء
للعلم ، والا فقد درس وبلى •• » (١) •

فهنا الدعوة ليست فقط لتبسيط العلم وتيسيره ، بل أيضا لاداعته
ونشره ، لتقدمه وتقريبه لكل راغب فيه ، وباحث عنه ••

وعلى ذلك فسلطات الدولة والمعلمون يجب ألا ينتظروا حتى يأتى
طلبة العلم اليهم ، بل يسعوا اليهم ويبحثوا عنهم ••

(١) ابن حزم • التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ، ص ٨ — ٩ •

وكل هذا المجهود يجب أن يرتبط بتيسير الأرزاق ، وإجراء الرواتب
لطلبة العلم حفزا لهم وتشجيعا لارادتهم ..

وبمثل هذا الجهد العلمى والمالى ينمو العلم ويربو بزيادة عدد
المتحقيقين بحيلقاته ، والمضيفين الى مصنفاته ..

بطبيعة الحال عندما طالب ابن حزم بالحوافز والمكافآت لم يقصد
أن تصبح غاية فى ذاتها ، بل انه فى حالات كثيرة دعا الى الزهد
والتعفف ..

ألم يمر بنا فى تعليم الكتابة تخوفه من جودة الخط وتحسينه التى
تؤهل صاحبها للكتابة عند الملوك والأمراء ، مما يوقعه فى الظلم
والظلمات ؟

لهذا تكرر كثيرا لدى ابن حزم :

« من اشتغل بطلب العلم ليكون سببا الى كسب المال فقد جمع
عيبين عظيمين :

ترك أخصر الطرق وركب أوعرها وأقلها فائدة ..

واستعمل الفضيلة التامة فى اقتناء حجارة لا يدرى متى تدعه
أو يدعها » ..

فطريق العلم لن يحقق له ما يرجوه من شهرة ومال ، وفى الوقت
نفسه سيجعله عبدا للمال والسلطان الذى يكبل عقله ويربط مصيره
بمصالح مادية متضاربة تهلك صاحبها ..

ولا ننسى أن ابن حزم تولى الوزارة ثلاث مرات ، ثم نبذته
الوزارة قبل أن ينبذها وتقلب به الظروف والعهود .. فولاؤه للأمويين
ظل يحكمه طوال عمره يحلم به حتى بعد أن أضحت الخلافة فكرة بعيدة
المنال ، لهذا كان طبيعيا فى فترة الظلم والنفى أن يصرح بهذا الفكر

بينما يبدو أنه كان في فترة النشاط السياسى والممارسة الوزارية غير ذلك ، وربما عكس ذلك •

وهيما يتعلق بتفاصيل بعض قضايا التعليم فالحق أن الأندلسيين فهموها بطريقة مختلفة عن المشرقيين ، من ذلك قضية أجر المعلم ••

غنى البداية كان الأساتذة القدامى فى الأندلس — وحتى الذين بلغوا شهرة مستفيضة — يمارسون مهنة ما ، أو عملا يدويا يتعيشون به ، اذا لم يكن لهم ميراث عن أسلافهم •• وبعضهم كان يعمل فى حقله وطلابه على مقربة منه يسمعون منه ويسمعهم •• وبعضهم يكد طوال يومه بحثا عن الرزق ثم يجلس فى سحابة النهار داخل المسجد يعلم الناس ، كل ذلك لأن قبول الأجر آنذاك كان يعتبر خدشا للحياء (١) من جهة ، وتعارضاً مع القيم الاسلامية الحاضرة على تعليم القرآن خدمة للعقيدة والمسلمين •

وبالتدريج والتطور « انتهى الفقهاء جميعا الى اباحة قبول العطايا لا فى تعليم القرآن الكريم فحسب ، بل فى تدريس الفقه ، وكتابة الرسائل والتاريخ ، وغيرها (٢) » ••

والمراجع لكتاب ابن حجر « تحرير المقال فى آداب وأحكام وغوائد بحتاج اليها مؤدبو الأطفال » يجد فصلا فى الأحاديث النبوية الدالة على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية به ، وبعده فصل آخر فى أسباب اختلاف العلماء على معانى الأحاديث السابقة (٣) ، وانتهى منها ابن حجر الى أن أخذ الأجر حلال لا شبهة فيه ••

(١) خوليان ريبيرا . التربية الاسلامية فى الأندلس — مرجع سابق ، ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .
(٣) راجع : آداب المتعلمين ورسائل اخرى فى التربية الاسلامية . دار الفتوح للطباعة — القاهرة ، ص ٢٥٤ — ٢٦٤ .

(م ١٠ — ابن حزم الاندلسى)

والسبب في الوضوح والحسم عند ابن حجر أنه متأخر فقد كتب رسالته سنة ٩٥٧ هجرية اما في القرون الأولى فكان الاختلاف حول هذه القضية واضحا كل الوضوح ، فهناك قليل يؤيد وهناك كثير يعارض +

ثم تطور الحال في العصور التالية وفي الأندلس على نحو خاص +

والمراجع لكتاب خوليان ريبيرا ، ورسالة محمد عبد الحميد عيسى يجد صورا لعقود كانت توقع بين أولياء الأمور والعلمين ، محددا لهما الموارد ، والمكافأة والمدة والهسديا ، وعقوبات الاخلال بالعقد مما يؤكد أن الأندلسيين كانوا أكثر حسما وقطعا في مسألة السماح بأخذ الأجر أو « الحذقة » ويكفي أن فقيه الأندلس « ابن حبيب » أفتى بجواز الأجر على تعليم القرآن باعتبار أن الأجر ليس ثمنا للقرآن ، بل اجارة للبدن المشتغل بذلك (١) .

ودعوة ابن حزم لتقديم العطايا والمنح ، والهبات والمساعدات علق عليها بعض المشرقيين تعليقا معارضا ..

فعندما فتحت المدارس النظامية ورصدت لها الأوقاف والتكايا ، والرواتب والعطايا اعترض على ذلك حاجي خليفة بقوله :

« عندما كوشف علماء ما وراء النهر بنبا ببناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه وكماله + أما اذا صار عليه أجرة تدانى اليه الفساد وأسباب الكسل فيكون سببا لارتفاعه أو زواله .. » (٢) .

(١) أحمد فؤاد الأهواني . التربية الاسلامية — مرجع سابق ، ص ٢١٨ .

(٢) حاجي خليفة . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، المجلد الأول ، ص ٢٢ .

بطبيعة الحال العلماء الذين أقاموا مآتم العلم فيما وراء النهر لم يكن سلوكهم حزنا أو كمدا على العلم فقط ، بقدر ما كان عن ذهاب مذاهبهم ومعارضة أفكارهم .. فالنظاميات التي أنشئت فيما وراء النهر سنية المذهب ، بينما كان التشيع وغيره من المذاهب أكثر رواجاً من قبل . من هنا حدث النزاع والصدام ، الذي أقام له البعض مأتما حزنا على المذهب وليس على العلم ! !

سابعاً : ضرورة التوسع في التعليم :

لخوليان ريبيرا تعليق على التعليم بالأندلس بأنه كان مجانياً واجبارياً . ونفهم من مجاني أن ذلك كان بالنسبة لمن لا يملكون نفقاته ، واجباري أن الرأي العام فرضه ، ولم يكن عملاً أو تشريعاً قامت به السلطة ، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يرفضون أن يقبلوا في مصانعهم صبياناً لا يعرفون القراءة والكتابة ، حتى ولو كانت مهمتهم لا تتطلبها (١) . .

ومعنى ذلك أن الاهتمام بنشر التعليم والتشجيع عليه وصل الى حد الالتزام بالتعليم بدون الزام رسمي ، ولا ننسى أن الكثير من الخلفاء والأمراء بالأندلس اهتموا بتعميم التعليم ونشره ، من ذلك ما قدمه الحكم بن عبد الرحمن عندما تولى خلافة قرطبة في مطلع النصف الثاني من القرن الرابع حيث أجمعت المراجع القديمة على أنه اتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين مجاناً ، وأجرى على هؤلاء المعلمين رواتب ثابتة بحيث أنشأ خلال مدة حكمه — التي استمرت ستة عشر عاماً — سبعة وعشرين مكتباً بمدينة قرطبة .. (٢) .

(١) خوليان ريبيرا . التربية الإسلامية في الأندلس — مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(٢) محمد عبد الحميد عيسى . تاريخ التعليم في الأندلس — مرجع سابق ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

وعند ابن حزم وصلت هذه المسألة الى ذروتها :

فنظرا لكونه فقيها يريد نشر العلم لكل الناس ••

ونظرا لكونه ظاهريا يرفض التقليد والقياس ••

لذلك — ولغيره — يقول :

« يجبر الامام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم شريعة الاسلام اما بأنفسهم واما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم • وفرض على الامام أن يأخذ الناس بذلك وأن يرتب ألقوا لتعليم الجهال • وفرض على أية جماعة مسلمة تعلم أحكام الشريعة الاسلامية » (١) •

اذن هنا تأكيد على الفئات المحرومة من نساء وعبيد ••

ونحن نذكر المحور الأول في التربية لا سيما ما يتعلق بحرية الانسان ، والمحور الثانى لا سيما ما يتعلق بطبيعة الانسان ، وكيف أنه وفر للرقيق حقوقا ألبت عليه الخاصة والعامة ، وكيف أنه أكسب النساء حقوقا فى الادارة وتعليم الرجال ومنع عنها فقط الامامة أو الخلافة ••

اذن هذه الفئات التى طال حرمانها مفروض على الامام أن يوفر لهم فرص تعليم الحد الأدنى من الشريعة ••

ونلاحظ فى نص ابن حزم « يجبر الامام » و « مفروض على الامام » ما يشير الى معنى الالتزام والجبر فيما يتعلق بالحد الأدنى من العلوم الشرعية •• ولا شك أن لكل مفكر غايات معينة يريد تحقيقها عن طريق علوم ووسائل معينة ، لهذا كان من الطبيعى أن يركز ابن حزم على أمور الشريعة الأساسية باعتبارها الحد الأدنى اللازم لكل مسلم عاقل •

(١) ابن حزم • الأحكام فى أصول الأحكام — الجزء الخامس ، ص ٦١٩ — ١٦٩٠ •

بعد فرض العين الواجب على كل مسلم عاقل ، تبدأ فروض الكفاية بحسب التخصصات :

فعلى الأمير والقاضى معرفة تفاصيل الأحكام والأقضية والحدود ..

وعلى التاجر معرفة أنواع المعاملات الجائرة والمحظورة ..

وعلى صاحب المال أن يعرف أوجه انفاقه فى الحلال ، وأحكام الزكاة على اختلاف أنواعها (١) ..

اذن هناك أساسيات ، وهناك تفريعات :

— الأساسيات يلزم على كل مسلم معرفتها ، وعلى ولى الأمر أن يوفّر له الظروف المناسبة لذلك ، بل يجبر على تنفيذ ذلك •
وقد سبق القول فى المحور السادس أن أغنياء المسلمين مفروض عليهم تشجيع العلم وتوفير الجرايات والمكافآت لطالبيه •
وهذه الأساسيات مفروض الارتحال اليها والبحث عنها بحيث يصل الانسان الى الشخص العالم الواعى ، الفاهم المحيط •

— والتفريعات التى تأخذ بها كل جماعة من جماعات المسلمين •
ولقد سبق القول فى المحاور السابقة بضرورة الامام بعدد كبير من العلوب بحسب التخصصات والاهتمامات ، أما الذى يتصور أنه اكتفى بعلوم العرب ، وليس بحاجة لعلوم غيرهم فكانه اكتفى بالملح عن سائر أنواع الطعام !

والذى لا شك فيه أن ابن حزم كان مختلفا فى ذلك عن كثير من مدارس التربية فى الحضارة الاسلامية وبخاصة عن الصوفية •
فالصوفية طلبوا علوما معينة ركزوا عليها ورفضوا غيرها رفضا باتا • •

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩٠ — ٦٩١ •

والفقهاء — بخاصة في المراحل المتأخرة — اكتفوا بالعلوم
الاسلامية واللغوية وأوصدوا الباب أمام غيرها ..

أما فقيه الأدباء وأديب الفقهاء فقد كان أقرب للمدرسة الفلسفية
مع انطلاق من علوم الشريعة ، وتوجيه سائر العلوم بحيث تؤدي الى
مزيد من الايمان بالبارى سبحانه وتعالى ، ومزيد من فهم المخلوقات
والظواهر .

والجديد في الأمر أن الالتزام الذي دعا اليه ابن حزم في التعليم
ارتبط بالمصالح الاجتماعية والاقتصادية ، من هنا فهم ابن حزم الدين
الاسلامى على « أنه فرض على الأغنياء في كل بلد أن يقوموا بفقرائهم
ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكاة بهم ولا في سائر أموال
المسلمين فيقام لهم بما يأكلون ويلبسون ، ويسكنون ^(١) » ..

ويتضح من ذلك أن حقوق المسلم الاقتصادية والاجتماعية ،
والثقافية والتعليمية ينبغي أن توفر له بتدخل من السلطان بحيث
لا يحرم حقاً ، ولا يفقد ركناً ..

وابن حزم لم يأت بجديد أو مستحدث في هذا الباب ، بل هو فقيه
حريص على دينه مفسر له ، موضح الأصول وتفريعاته . فهذه الأمور
ليست من صنع خياله ، أو من جهد اطلاعه على فكر أجنبي ، بل تعبير
عن موقف الاسلام من قضايا الفرد والمجتمع ، والحقوق والواجبات .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام الفائق بنشر العلم وتبسيطه الا أن
ابن حزم في « الأخلاق والسير » يقول لنا أن نشر العلم عند من ليس
من أهله مفسد لهم ومضر بهم ^(٢) ..

(١) ابن حزم . المحلى — الجزء السادس ، ص ١٥٦ .

(٢) ابن حزم . الأخلاق والسير — مرجع سابق ، ص ١٠٤ .
وهذه الفكرة ترددت كثيراً عن فقهاء المسلمين ومفكرهم واقتدوا في
هذا بالحديث النبوى الشريف « انا معاشر الانبياء امرنا ان ننزل الناس =

فكيف يمكن التوفيق بين الدعوتين ؟

دعوة للتبسيط والنشر وتقديم العلم لكل طالب وراغب ..

ودعوة لتقديمه لمن هو أهل له ..

فهل هذا نوع من التناقض وقع فيه ابن حزم ؟

يبدو أن الرجل يدعو الى التبسيط والنشر ، وفي الوقت نفسه الى دقة اختيار الراغبين في العلم والطلابين له ..

لمع الاتساع والانتشار ستظهر الفروق والتميزات ، فمن طلب العلم من أجل تحقيق الكسب والمنفعة ، والقرب من السلطان والحكم فقد أدخل بشروطه وأهسده أصوله . ومن طلبه من أجل أن يتقرب الى الله تعالى والوصول الى رضاه فقد حقق المنشود . وبذلك فالدعوة للنشر والاذاعة ، لا تتعارض مع أهداف طلب العلم التي ينبغي أن تكون سامية ومتعالية على المصالح والمغانم . وهذه الغائية والمثالية سمة لطلب العلم عند المفكرين المسلمين بصفة عامة في العصور الوسطى وربما حتى مطلع القرن الثامن عشر حيث كان العلم يطلب لذات العلم ، والمعرفة من أجل التقرب الى الله وخدمة الرسالة الدينية بعيدا عن مطالب الدنيا واحتياجاتها .

ثامنا : شروط التأليف الجيد :

سبق القول خلال المحاور السابقة أن العلم يعتمد على العقل والحس والتواتر ، مبتعدا عن الخرافة والأساطير ، وأن يكون بمستوى والمحتوى المناسب للمتعلم بدون تزيد أو تمحل ، مرتبعا بحياة الانسان

= منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم » . راجع التفاصيل :
نادية جمال الدين . نظرات في كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة .
حسان محمد حسان ونادية جمال الدين . مدارس التربية في الحضارة
الاسلامية — دراسة نظرية تطبيقية . دار الفكر العربي — القاهرة ١٩٨٤ ،
ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

يخدم احتياجاته ومطالبه ، وأن يهدف الى تعميق ولائه للبارى سبحانه
وتعالى وابتعاده عن سلاطين الأرض وطواغيت الحكم •
وبالاضافة للشروط السابقة وضع لنا ابن حزم مجموعة من القواعد
للتأليف الجيد :

« التأليف لا يخرج عن سبعة أوجه لا ثامن لها :

شئ لم نسبق الى استخراجِه فنستخرجه ، وشئ ناقص فننتمه ،
وشئ مخطئ فنصححه ، وشئ مستغلق فنشرحه ، وشئ طويل
فنختصره ، وشئ متفرق فنجمعه ، وشئ منثور فنرتبه •

أما من أخذ تأليف غيره فأعاده على وجهه وقدم وآخر ، دون
تحسين رتبة ، أو بدل ألفاظه دون أن يأتى بأبسط منها وأبين ، أو حذف
مما يحتاج اليه ، أو أتى بما لا يحتاج اليه ، أو نقض صوابا بخطأ ،
وأتى بما لا فائدة فيه فانما هذه أفعال أهل الجهل والغفلة ، وأهل
القحة والسخف فنعوذ بالله من ذلك (١) ••

ولا شك أن الفنون السبعة السابقة :

- استخراج ما لم يستخرج ••
- واتمام الناقص ••
- وتصحيح الخطأ ••
- وشرح المستغلق ••
- واختصار الطويل ••
- وتجميع المتفرق ••
- وترتيب المنثور ••

(١) ابن حزم . التقريب لحد المنطق — مرجع سابق ، ص ١٠-١١ .

لا شك أنها شبه احاطة بأنواع التأليف المختلفة ، أما تكرار السابق ، بدون تعديل وتطوير ، أو تجديد واستحداث ، أو تصحيح وتصويب ، فلا مبرر له وكان الأولى بصاحبه أن يمتنع عنه ، ويريح الناس منه ..

والدعوة السابقة لتبسيط العلم وتيسيره لكافة الناس ، واداعته بينهم لا تعنى أن نقدم لهم مادة القدماء كما هي ، بل بالصورة الأنسب والتعديل الأوفق ..

وفي المرجع السابق اشارة طيبة الى أنواع الأسئلة :

فهى تكون بهل ، وبما ، وبكيف ، ويلم ^(١) ..

وكل حالة منها تخفى رتبة معينة وموضعا محددًا ، ولا يجوز الخلط أو التداخل بينها •

ولا شك أن ابن حزم بتكوينه الفقهي ، ودراسته للمنطق كان محددًا واضحًا ، منظما مرتبًا ولم يقتصر ذلك على فقهه وفكره ، بل امتد الى شعره لذلك فان المتعمقين فيه يقولون ان هذه السمات الفكرية انعكست على انتاجه الشعرى فجاء محشودا بالفكر والمصطلحات الفنية مخاطبا للعقل والاتزان أكثر منه تعبيرا عن مشاعر جارفة وصور شعرية فجاء شعره تعبيرا عن لغة المتفلسفة ، ومصطلحات الفقه والأصول ، والمنطق والجدل ^(٢) ..

تاسعا : فضل العلم وأهله :

سبق القول بأن ابن حزم كتب مرارا :

من اشتغل بطلب العلم ليكون سببا الى كسب المال فقد جمع بين عييين عظيمين :

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٢ — ١٨٤ .

(٢) مبد الكريم خليفة . ابن حزم الاندلسي — مرجع سابق ،

ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

ترك أخصر الطرق وركب أوعرها وأقلها فائدة ، واستعمل الفضيلة
التامة في اقتناء حجارة لا يدرى متى تدعه أو يدعها ..

ويعود ابن حزم في رسالة « مراتب العلوم » مؤكدا هذه الفكرة
بقوله : أن صحبة السلطان وعمارة الأرض والتغلب في التجارة كل ذلك
يدردخلا مضاعفا على دخل المشتغل بالعلم ، كما أن أوجه الكسب هذه
لا تحتاج الى علم غزير ، بل ينجح فيها الجاهل صاحب الحظ ..

وكان ابن حزم لم يكن محظيا للقرن الخامس الهجري فحسب ،
بل مستظلا للقرن الخامس عشر مواسيا لعلمائه ، مشاركا لهم الهموم
والأحزان ، ليس فقط على ضالة الراتب ، بل أيضا على بطش أصحاب
المراتب ! !

وفي كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » حديث طويل عن
العلم يقول فيه أن فضل العلم يظهر في عدة مجالات أهمها :

— أن الجهال يهابونك ويجلونك ، والعلماء يحبونك ويكرمونك ..

— يقطع صاحبه عن الوسائس المضيئة والآمال التي لا تفيد
غير الهم ..

ولذلك فإن ضعفاء الملوك عندما لم يجدوا شيئا يملأون به
حياتهم ويشغلون به أنفسهم لجأوا الى الشطرنج والفرد ،
والخمر والأغاني .. اذن العلم اثناء للحياة الشخصية
والجماعية ، وبحث في المفيد وبعد عن المضرة في الدنيا والآخرة ..

— يعلم حسن الفضائل ، ويعلم قبح الرذائل فيحاول المتعلم أن
يستريد من الأولى ، ويجتنب الثانية ..

وابن حزم في كل ذلك كان تعبيرا عن الثقافة الاسلامية المشرقية
والمغربية التي وضعت العلم في مكانة سامقة نظرا لصلته بالباري
سبحانه وتعالى وبالفضيلة والخلق القويم ..

فالنظرة للعلم عند المسلمين بعامة لم تكن نفعية عملية ، بقدر ما كانت دينية أخلاقية وهذه سمة للعصر والمرحلة بكل تحدياتها واستجاباتها •

عاشرا : آداب مجالس العلم :

للمسلمين آداب خاصة بحضور مجلس العلم والخروج منه ، والمشاركة فيه والاستزادة منه •• وهذه الشروط تحكم المعلم والمتعلم ، والمحاور والمستمع ، والمناظر والمجادل •

من هنا قال لنا ابن حزم :

« اذا حضرت مجلس علم فلا يكون حضورك الا حضور مستريد علما وأجرا ، لا حضور مستغن بما عندك ، طالب عثرة تشنعها ، أو غريبة تشيعها ، فاذا حضرتهما فالتزم أحد ثلاثة أوجه :

• اما أن تسكت سكوت الجهال

• واما أن تنسأل سؤال المتعلم

• أو تراجع مراجعة العالم •

واذا ورد اليك خطاب بلسان ، أو هجمت على كلام في كتاب ، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المبالغة ، قبل أن تتيقن بأنه برهان قاطع ، وأيضا فلا تقبله اقبال المصدق به ، ولكن أقبل عليه اقبال سالم القلب عن النزاع عنه (الانصراف عنه) والنزوع اليه ، فمضمون لك اذا فعلت ذلك الأجر الجزيل ، والحمد الكثير » (١) •

ومثل هذه التوصيات بما فيها من قيم انسانية وأدبية لم تمنع ابن حزم من التصريح مرارا بأنه تعلم من مقارعة الجهال ، ومصادمة أفكارهم !!

(١) ابن حزم . الاخلاق والسير — مرجع سابق ، ص ٢٥٣ — ٢٥٦ •

فكما يتعلم الانهسان من العالم الرصين ، قد يتعلم من الجاهل
الأحمق . لذلك قال :

« انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهى أنها توقد طبعى ،
وتحتدم خاطرى ، وتحمى فكرى ، وتهيج نشاطى ، فكان ذلك سببا الى
تواليف عظيمة المنفعة ، ولولا استنارتهم ساكنى ، وقتداحهم كامنى ،
ما انبعثت الى هذه التواليف » ويبدو أن الرجل كان مخلصا مع نفسه :

فغلبه الجسمية والنفسية ، وما مر به من عنت واضطهاد ، سجن
لشخصه وحرق لكتبه لابد أن ذلك كله جعله حاد الطبع مع المخالفين له ،
المعارضين لرأيه . وكثيرا ما يستخدم ابن حزم كلمة الجهال ليصم بها
علماء كبارا لأنهم خالفوه رأى ، وقارعوه الحجة .

ولا شك أن اعتزازه بنفسه ، وثقته فيها الى حد عدم تخوفه من
مخالفة جميع أهل الأرض ، لا شك أن ذلك جعله حاد الطبع فى المناقشة :

يهستثار فتتحرك فيه مشاعر التحدى والرغبة فى الالهام فيعكف
على كتبه وأوراقه ، محبرته ودواته مؤمنا بما قاله الامام أحمد بن حنبل
« من المحبرة الى المقبرة » من هنا قيل أن وهج النار التى التهمت
مؤلفات ابن حزم ، أضاعت نفسه بالاصرار وارادة التغيير (١)

والمعلم عليه أن يتمسك بمجموعة من الآداب أجملها ابن حزم
فى رسالته مراتب العلوم بما يلى :

— النصح والارشاد بدون غلظة أو تشدد لا موضع لهما أومبرر .

— التزيد من العلم والتوسع فيه بحيث لا يقف عند حد ولا يكتفى
بجانب واحد ، وبذلك يكون سببا للخير فى تعلم الجاهل .

(١) عبد الرحمن الشرقاوى . ائمة الفقه التسعة — مرجع سابق ،
ص ٢٨٢ .

— لا يقبل الغش أو التمويه بل عليه التزام جادة الطريق بالصبر والاخلاص ، والقناعة والاقناع لأنه يؤدي مهمة دينية وليس فقط تعليمية .

— الرضى بكفاف العيش بدون اراقة لماء الوجه لدى سلطان أو طاغوت ، فالمسال عبارة عن أحجار يتركها المرء بعد قليل فلا يصح أن تكبل خطاه وتوجه مساره .

— الابتعاد عن السلطان « فإذا ابتلى العالم بصحبة السلطان ، عرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه ، وذهاب نفسه ، وشغل باله ، وترادف همومه » .

طبعا ابن حزم كتب هذا بعد أن نبذته السياسة وضيقته عليه خناقتها ، انما قبل ذلك عندما كان وزيرا ثلاث مرات فان قربه من السلطان لم يذهب بدينه 11

ولا شك أن ابن حزم كان يعرض بالذين أجروا أنفسهم وسخروا علمهم لخدمة الأمراء والخلفاء .. ولقد سبقت الاشارة في الفصل الثاني الى ما حدث من بعض الفقهاء ، وبخاصة عندما أجرت مناصب القضاء لمن يدفع مقدما فأصبح هدفا للطامعين ، وبوقا للحاكمين .

لهذا كان ابن حزم قرب نهاية حياته برما شاكيا ، زاهدا قائلا في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :

هل الدهر الا ما رأينا وأدركنا

فجائعه تبقى ولذاته تفتنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة

تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

الى تبسمات في المعاد وموقف

نود لديه أنشأ لم تكن كنا

حصلنا على هم وائتم وحسيرة
وهات الذي كنا نأمله به عنا
حنين لما ولى ، وشغل بما أتى
وغم لما يرجى ، فعيشك لا يهنأ

كانت هذه الملامح الأساسية لفكر ابن حزم التربوى حاولت
اعادة تنسيقها وتركيبها من عدة مصادر له ، والمؤكد أن كتبه الفقهية
بتفاصيلها وموسوعيتها مليئة بأفكار أخرى وأدلة متنوعة •
ولقد حاولت قدر الامكان تقديم فكره بدون تخريج أو قياس ،
أى حاولت أن أكون ظاهريا مع امام الظاهرية !!

ورغم أن ابن حزم لم يكن مربيا أو مؤدبا محترفا ، ورغم أن
معظم تأليفه وانتاجه في الفقه والسيرة ، والتاريخ والأدب إلا أن ذلك
لم يمنعه من كتابة بعض الومضات والاشارات في شئون المعلم والمتعلم،
العلوم وتصنيفها ومراتب العلوم ، مع دعوة حارة لتبسيط العلم
وتقديمه للناس •

والميزة في فكر ابن حزم أنه يمثل وحدة منسجمة متكاملة مبنية على
منهجه الظاهري الذي التزم به فقها وأدبا ، سيرة وتاريخا ، شعرا ونثرا •

وإذا كانت هذه الدراسة قاصرة في بعض جوانبها فهي دعوة
حارة لدراسة الفقه والفقهاء ، واكتشاف ما في كتبهم ورسائلهم من
فكر تربوى له ملامح خاصة وسمات متميزة عن فكر فلاسفة المسلمين •

ومثل هذه الدعوة تحتاج الى عون وجهد من أصحاب الدراسات
الشرعية الذين اختصوا بدراسة الفقه وأصوله بحيث يتعاونون مع
التربويين في سبر هذا المجال واستكشاف جواهره ، وبذلك نقدم
خدمة جليلة لمدرسة تربوية اسلامية قلما درست ، ونادرا ما سلطت
عليها الأضواء فغابت عنا مناهج ووسائل ، وأهداف وغايات ، وبرامج
وأساليب نحن في أمس الحاجة للتعرف عليها والاستفادة منها •

خاتمة

والآن بعد هذه الجولة مع ابن حزم وعصره ، منهجه وفكره
يمكن الوصول الى مجموعة النتائج التالية :

اولا : الحياد وموضوعيته :

رغم ما حاولته من حياد وموضوعية ، الا أنني في كثير من المواقف
كنت منحازا بوعى وبغير وعى *

فكثيرا ما تحمست للرجل ، وانبرت دفاعا عنه *

وقليلا ما وجهت له الانتقاد واللوم وهذا عيب ظاهر في معظم
دراساتنا عن الشخصيات :

فأما ميل للاطراء والمدح ، أو الذم والقدح !! ونادرا ما نقدم
الدليل على صحة ما نقول *

ورغم تحذيري وتنبيهي سقطت في براثن الشرك فدافعت عن
الرجل وكأني من المؤمنين بالظاهرية المتحمسين لها *

صحيح أن الرجل اضطهد وطال اضطهاده *

شرد من بلده وطال تشريده *

الا أن ذلك لا يعنى السماح والعفو للرجل سقطاته وهفواته
نتيجة تطرفه المنهجي *

ونتيجة هذا التطرف حوشر ابن حزم — في الماضي والحاضر —
بهتافات المؤيدين ورجمات المخالفين !! من هنا ضاعت نعمة الموضوعية
فيما كتب عنه وتكفى مراجعة كتب المهاجمين له ليتضح لك مدى الجور
والظلم الذي عاناه *

لهما كتبه القاضي أبو بكر ابن العربي في «العواصم من القواصم»
و « الدواهي والنواهي » وما كتبه أحمد بن محمد بن حزم في « الزوائج
والدوافع » يوضح مدى الظلم والاتهام الذي وجه له من غير دليل
ولا برهان *

(م ١١ — ابن حزم الأندلسي)

ثانيا : ظاهرية المنهج والحياة :

كان ابن حزم ظاهريا في فكره وحياته ، وفي فقهه وتفسيره ، وفي تاريخه ومقارنته للأديان ، وفي جدله وكلامه ، وفي دراساته الفلسفية والنفسية ، وحتى في شعره كان ظاهريا لأقصى الحدود من هنا روى « المقرئ » في « نفح الطيب » أن ابن حزم التقى يوما بوجه حسن فقال لصديق له :

هذه صورة حسنة •

فقال صديقه : لم نر الا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك • فرد ابن حزم مرتجلا :

وذى عذل فيمن سباني حسنه

يطيل ملامى في الهوى ويقول

أمن أجل وجه لاح لم تر غيره

ولم تدر كيف الجسم أنت عليل

فقلت له أسرفت في اللوم فأتئد

فعدى رد لو أشاء طويل

ألم تر أننى ظاهرى وأننى

على ما أرى حتى يقوم دليل

هذه الظاهرية منذ تمذهب بها كانت منهجه وحياته مهما لقي

من صعاب ، وواجه من محن :

والتطرف في الظاهرية ساقه لبعض الزلل وهذا وضع طبيعي

في كل مذهب متطرف واتجاه ناء •

صحيح أن الرجل خلص الفكر الاسلامى من بعض أوهام وخرافات

وخلص الفقه من التقليد والتكرار الا أنه أحيانا جاوز الصواب ، وتكب

جادة الطريق •

ولعل تجاوزه يمكن التغاضي عنه لكونه ثورة فكرية شاملة ضد
الباطنية والصوفية ، والتكرار والتقليد ، والظلم والظلام •
فعدد من أهل العلم في عصره كان لا هم لهم الا التبرير والتغريب :
التبرير للخاصة ، والتغريب بالعامية وكان ابن حزم ثورة عليهم
وتحطيماً لهم •

ويكفيه أنه ضد كل امام معصوم أو شيخ لا حساب عليه
ولا رقيب ، ثم ساعدت طبيعته الشخصية المتطرفة ، وتكوينه النفسى
الحاد على جعل ظاهريته أشد تطرفاً من معظم الظاهرية لذلك قال
في الجزء الأول من الأحكام في أصول الأحكام :
« ان الظاهرية تعنى ظاهر اللفظ من ناحية اللغة فلا يصرف اللفظ

عن معناه اللغوى الا بنص آخر أو اجماع ، فان نقل اللفظ عما اقتضاه
ظاهره ، وعما وضع له في اللغة فحكم ذلك النقل أنه باطل ويعتبر تبديلاً
لكلام الله عز وجل » •

وفي تقدير كثير من المتخصصين أن أبا داود الظاهري — شيخ
المذهب — وغيره من الشيوخ كانوا أكثر اعتدالاً من ابن حزم وليس
في ذلك من تثريب أو حرج • والمهم أن له عبارة في طوق الحمامة يقول
فيها « كلام الانسان من عمله » •

اذن لا يمكن الفصل بين القول والفعل ، بل الفعل مصداق للقول ،
والقول دليل عليه • ولا شك أن هذه دعوة للتكامل والمصادقية بحيث
لا يحدث تنافر أو تضاد داخل الشخصية الواحدة •

ثالثاً : تمسكه بالعقل ورفضه للقياس :

ابن حزم من أشد الفقهاء تمسكاً بالعقل واحتكاماً إليه •

وهذا موقف ليس بغريب على الكندي والفارابي ، وابن سينا
واخوان الصفا ، لكنه غريب داخل مجتمع الفقهاء لهذا كان ابن حزم
وابن رشد (١) فقهاء من نوع خاص .

لذلك كتب ابن حزم « التقريب لحد المنطق ، والمدخل اليه بالألفاظ
العامية والأمثلة الفقهية » لكي يجعل المنطق علما سهلا وأسلوبا ميسرا
لدل العامة بدون مصطلحات معقدة ، وتركيبات عسرة ، كما كتب لنا
« ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » شرحا لوجهة
نظره ، وعرضا لمنهجه ورفضاً للقياس ودفاعاً عن العقل .

وفي معرض دفاعه عن العقل يقول في الجزء الأول من الفصل :
« من أبطال العقل فقد أبطال التوحيد ، اذ لولا العقل لم يعرف
الله عز وجل أحد » .

ويتكرر نفس المعنى في الجزء الأول من المحلى :

قال الله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقال تعالى :
« اليوم أكملت لكم دينكم » وذلك ابطال للقياس والرأى . . فقد شهد
الله تعالى بأن النص لم يفرط في شيء ، وأن رسوله عليه الصلاة والسلام
قد بين كل ما نزل اليهم وأن الدين قد كمل . . فاذا كان ذلك كذلك
فلا حاجة بأحد الى قياس ، ولا الى رأيه ورأى غيره في الدين » .

وقد سبق في الفصل الثانى عرض وجهة نظر ابن حزم واضحة
جليّة دفاعاً من مذهبه ، ورداً على المخالفين .

وتمسكه بالعقل يظهر جلياً في كل جوانب فكره فقهها وتاريخها ،
فلسفة وكلاماً .

(١) نفس موقف الاعجاب والاشادة الذى وقفه ابن حزم من أرسطو
سينفه ابن رشد .

فابن رشد — كما يقول دى بور — يعتبر أرسطو اسماً صورة تمثل
فيها العقل البشرى ، لهذا سماه بالفيلسوف الالهى الذى أبدع مذهباً
لا يتعارض مع اسماً معرفة يستطيع ان يصلها انسان .

لذلك احتل العقل منزلة أساسية عندما عالج قضايا الإدراك والمعرفة ، وعندما صمم منهجا لترتيب العلوم • ولعله كان من الفقهاء النادرين الذين أصرّوا على دراسة وتدريس الفلسفة والميتافيزيقا ، كما رفض كثيرا من الخرافات والبدع استنادا الى فطرة العقل •

رابعا : فتحه باب الاجتهاد :

لابن حزم عبارة شهيرة ومثيرة :

« المجتهد المخطئ أفضل عند الله من المقلد المصيب » !!

ولا شك أن ذلك ارتياد للاجتهاد وتشجيع عليه لسائر المسلمين ، من هنا نهى عن التقليد لمجرد التقليد ، والاتباع لمجرد الاتباع •

واذا كان ابن حزم بمنطق عصره ثورة فكرية فنحن اليوم في أمس الحاجة اليها سواء كأفراد وجماعات ، أو دول ومجتمعات ، أو محكومين وحاكمين •

فقضايا كثيرة داخل العالم الاسلامي وخارجه تحتاج الفقيه العميق في علمه ، والمفسر المتمسك بأهداب شرعه •

والمعروف — تاريخيا وحاضرا — أن أحد أسباب غلق باب الاجتهاد عدم التمكن من أصول الفقه • فكلما كان الفقيه عليلا ضعيفا اعتال على غيره بدون بحث وتعمق ، وارتياح واعتداد •

وهناك محاولات كثيرة بين علماء المسلمين اليوم لفتح باب الاجتهاد ، ومتابعة القضايا المعقدة ، والمتشابكة ، والمتفردة والمتشابهة، وبذلك يستطيع المسلم متابعة ما يحدث في عالم اليوم وهو مطمئن البال ، واضح البصيرة •

بطبيعة الحال هناك صغار وكبار يهمهم عدم الوصول الى اتفاق ، بحيث يظل المسلمون نهبا للقلق وفريسة للفوضى ، من غير رؤية اسلامية

لقضايا الحياة والمجتمع وبذلك يدورون في فلك العلمانية ودعوى
العصرية مما يسهل السيطرة عليهم والتحكم في مقدراتهم •

ولعل دعوة ابن حزم بما فيها من جرأة وشجاعة ، واصرار
وتصميم تشجع عددا من فقائنا المعاصرين على مساعدة الأمة على
التقدم والرقى •

ولا شك أنها مهمة صعبة شاقة ، وعسيرة مجهدة ، ولكن متى كانت
الطول سهلة متوافرة ؟ ومتى كان الاجتهاد بسيطا ميسرا ؟

خامسا : جمعه بين الشريعة والحكمة :

يمكن تقسيم المعرفة عند ابن حزم الى عالمين :

عالم الشهادة الذى تصدق عليه أحكام العقل ، وعالم الغيب الذى
ليس للعقل عليه أى سلطان •

وكل ذلك معقول ومشهور ، الا أن الجديد عن معظم الفقهاء أنه
لا تعارض بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، أى بين الشريعة والفلسفة •

من هنا يقول فى الجزء الأول من « الفصل » :

« الفلسفة على الحقيقة ثمرتها ومعناها اصلاح النفس ، وهذا
نفسه غرض الشريعة وهذا لا خلاف فيه بين أحد من علماء الفلسفة
ولا أحد من علماء الشريعة الا لمن انتمى الى الفلسفة بزعمه وهو منكر
للشريعة بجهله بمعانى الفلسفة » •

ومن هنا قال فى الجزء الثانى من « الفصل » أن كتب أرسطو فى
المنطق كلها سالمة مفيدة ، دالة على توحيد الله عز وجل ، ولا شك أن
لها فائدة كبيرة فى انتقاء جميع العلوم •

والحق أن موقف ابن حزم فيه كثير من الشجاعة والاقتحام :

فهناك مواضع يحدث فيها التعارض بين الفلسفة والشريعة ولا بد فيها من وقفة تخير بدون توفيق أو حياء ، ومع ذلك أنكر ابن حزم ذلك وتجاوزه •

ولقد سبق القول أن ذلك شيء بدهى لمن سمو « بفلاسفة المسلمين » ، أما أن يصدر عن فقيه فتلك جرأة وشجاعة ، فيها مزالق ومخاطر •

ويبدو أنه اضطر — كسائر الفلاسفة في الاسلام — الى اخفاء قضايا في الفلسفة اليونانية ، مع صبغها بصبغة اسلامية • ومن هنا قال أستاذنا الدكتور « محمود قاسم » أن ابن رشد اضطر الى تحوير فلسفة أرسطو ولم يأخذ منها الا ما رآه حقا ، واستبعد الآخر •

ولا شك أن الصلة وثيقة بين ابن حزم وابن رشد دفاعا عن الفلسفة والعقل ، وتمسكا بالعقيدة والشرع منع محاولة للتوفيق بينهما وما كتبه ابن رشد في « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « مناهج الأدلة في عقائد الملة » يكشف عن وحدة الهدف بينهما : •

فكلاهما قرطبي اشتغل بالفقه والفلسفة ، وتعرض للنفي والطرده ، الاتهام في العقيدة وتحريق الكتب •

صحيح هناك أوجه اختلاف بينهما في المنهج والوسائل ، المذهب وطريقة التفسير ، الا أن صلة وشيجة تجمع بينهما تحتاج بحثا للوقوف على مواضع الاتفاق والاختلاف ، والتماثل والتمايز ، ولعل في دراسات الفلسفة والفقه شيئا من ذلك لم أحط به علما •

سادسا : تمسكه بالرأى واصراره على المبدأ :

روى ابن بشكوال في « الصلة » عن ابن حزم :

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت

أقوالهم وأقوال العدا ممن

قلت هل عيبيهم لى غير انى لا
أقول بالرأى اذ فى رأيهم فتن

واننى مولع بالنص لست لى
سواه انصو ولا فى نصره أهين

لا انثنى نحو آراء يقال بها
فى الدين ، بل حسبى القرآن والسنة

ولا شك أن اصراره مثل يحتذى ، وقدوة تستلهم ، وخاصة اننا
نعيش عصر ضعف وتخاذل ، واستسلام وقنوط ! !

وكثيرا مما عاصره ابن حزم نعاصره اليوم :

فعوامل التشنت والتنازع ، والتنافر والتضارب ، ظلم الحكام
وظلمات المحكومين ، صراع الولايات ومن نصبوا أنفسهم قيادات ،
ومحاولات حصار العالم الاسلامى ، والتهام حدوده المتطرفة ، ثم شراء
العملاء والمأجورين ، كل ذلك عاصره ابن حزم ونعاصره اليوم . .

ولا شك أن ذلك يتطلب نوعا معيناً من الجهاد والاجتهاد ، والرجال
والقيادات من هنا قال ابن حزم فى « مداواة النفوس » :

ان لم يكن بد من اغصاب الناس أو اغصاب الله عز وجل ، ولم يكن
لك مندوحة غير مناصرة الخلق أو مناصرة الخالق ، فأغضب الناس
ونافروهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق .

وهذا درس آخر يقدمه لنا ابن حزم نحن فى حاجة ليس فقط
للاقتداء به ، بل للتفوق عليه .

وجزاء من مشكلة المسلمين اليوم أنك تجد الفرد صالحا غاية
الصلاح تقيا غاية التقى الا أن عدم اصرارنا فى المواقف الجماعية على
نفس مبادئنا فى المواقف الفردية يضعف موقفنا ويهدد وحدتنا .

سابعاً : جراته وشجاعته :

لعلنا نذكر عبارة ابن حزم المشهورة التي وردت في الفصل الأول :
« وما من مدبر مدنية أو حصن في أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ،
الا محارب لله ورسوله وساع في الأرض بفساد » ♦

من هنا كتب رسالته المشهورة « رسالة التلخيص لوجوه التخليص »
تخليص الأندلس من العتاة الطغاة ، والمنحرفين الانهزاميين الذين باعوا
الأرض والعرض ، والديار والثمار ♦

فالتناحر والتضارب ، والانغماس في المذاذات والشهوات ،
والتضحية بالأهداف العليا في مقابل ترضيات رخيصة ، كل ذلك دفع
ابن حزم للهجوم على الحكام والأمراء ♦

ولم يقتصر الأمر عليهم ، بل امتد لأدعياء الفقه والمتكسبين به من
منا قال في رسالة التلخيص :

« لا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه اللابسون جلود الضأن
على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على
فسقهم » ♦

ولا شك أن ابن حزم شرح مجتمعه بدون خوف أو وجل ، أو رهبة
وتراجع وهذا ما نفتقده اليوم مذهباً وسلوكاً ، فرداً وجماعة ♦

فنسب التقلب العالية ، ومعدلات التراجع مرتفعة بحيث يصعب
عليك تصنيف المفكرين والساسة :

اليوم معك ، وغدا ضدك !

وكثير منا يقف موقف المتفرج الداهل ، والحاضر الغائب مما
يشجع المعتدين والآثمين ♦

لهذا عندما وصف ابن حزم بأنه مالك للعلم جاهل بسياسته ،
كان المقصود بذلك جهله بسياسة النفاق والمالأة ، والتزلف والمداينة
التي كانت — وما زالت — أسلوبا للوصولية المغلفة بالأدب واللطف ،
والكياسة والسياسة ا ا

ثامنا : ارتياده المعارف والبلدان :

لم يترك ابن حزم ميدانا من غير درس وبحث ، تأليف وتلخيص
كسائر مفكرينا الكبار وعلمائنا الأجلاء •

وارتياده المعارف صاحبه تعدد الزيارة وتغيير الإقامة ، نتيجة
الطرد والنفي من هنا تنتقل بين قرطبة والمرية ، بلنسية والشاطبة ،
جزيرة ميورقه والقيروان حتى لفظ أنفاسه منفيا في قريته منت ليشم ،
وبذلك انطبق عليه قوله :

لم تستقر به دار ولا وطن
ولا تدفأ منه قط مضجعه

كأنما صيغ من رهو السحاب فلا
تزال ريح الى الآفاق تدفعه

ولا شك أن أمويته التي أصر عليها ، وظاهريته التي تمسك بها
أورثاه المشكلات والأزمات •

لهذا كان موقفه السياسى مخالفا لعصره وزمانه ، متمسكا بأهداب
حلم قديم ، فقد جذوره وأصوله •

كما كان موقفه الفقهي مخالفا لمالكية الأندلس لهذا لم يحظ بتأييد
الكثرة وابتلى بمعارضة الغالبية •

وزاد الطين بلة ردوده على النصارى واليهود الذين كالوا له
عندما ربحت تجارتهم وعلت أسهمهم •

ومعنى هذا أن الرجل لم يحظ بتأييد بنى ملته ، ولا ببحوث المخالفين لعقيدته * * فعندما سقطت الأندلس في براثن التنصير ومحاكم التفتيش اعتبر ابن حزم من غلاة الأعداء لأنه صاحب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وكتب « الرد على ابن النغيلة اليهودي » ١١

لهذا لم يحظ باهتمام الباحثين الأوروبيين الا منذ فترة قليلة عندما تقلصت يد الكاثوليكية وفتحت نوافذ البحث العلمى التنزيه *

وحتى معظم البحوث العلمية الأوروبية ظلمت الرجل فخلعته من جذوره وأصوله ونسبته الأسبانيا المسيحية ، والحضارة القوطية ، ولقد مر علينا فى الفصل الأول ادعاءات دوزى وسانتشست البرنس وردود أسين بلاثيوس عليها *

وبذلك كان الرجل ضحية الاضطهاد والرفض ، والتعصب والمقت قديما وحديثا ، بين المسلمين وغير المسلمين *

تاسعا : صراع الشدة والرقّة داخله :

كتب ابن بسام أن ابن حزم كان يصك معارضيه صك الجندل ، وينشقهم انشاق الخردل ، فينفر منه القلوب ، ويوقع بها الندوب ، وفى الوقت نفسه كان ابن حزم رقيقا غاية الرقة ، حانيا غاية الحنو ، لذلك قال ابن قيم الجوزية أن كلامه فى العشق تنمّاع فيه النفس انمياعا ، وتذوب فيه ذوبا *

والرجل بطبيعته كان رقيقا حانيا ، شاعرا ملهما ، ثم فرضت عليه ظروفه السياسية والعلمية التطرف ومعاداة المعارضين ، وسبقت الاشارة فى الفصل الأول الى اصابته بداء الطحال مما أورثه بعض العلل أثناء تعامله مع الآخرين *

ومع ذلك فالمجادلة والمحاورة ، والمعارضة والمناظرة أكسبته مهارات ، وفجرت فيه طاقات ، لذلك قال فى رسالة « مداواة النفوس » :

« انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة فقد أوقدت طبعي وأحيت تفكري وهيجت نشاطي ، فكان ذلك سببا لتوالي عظمة ، ولولا هم لما انبعثت تلك التواليف » •

وابن حزم كسائر العباقرة المبدعين لا بد من وجود صراع داخلي وخارجي حولهم ••

فالقيم والمثل ، والأفكار والمبادئ التي ينشدونها تجد صدا وعقبا ، وزجرا ونهيا ، لهذا كان ابن حزم - رغم فقهه وعلمه - من بين أئمة المسلمين الذين امتحنوا بحرق كتبهم ومنع تدريسهم ، كما فرضت عليهم أوامر الحبس والطرده خوفا من تجمع العامة حولهم • وكثرة الطلاب عليهم •

والذين درسوا شعر ابن حزم دراسة تحليلية لاحظوا أن أفكاره الفلسفية والفقهية تتسلل إلى شعره كثيرا وتضفي عليه طابعا فكريا ، أكثر منه غنائيا وصفيا •• وفي بعض الحالات لاحظوا أن شعره خضع للفكرة ، من هنا فقد بعض سمات الطلاوة والجزالة ، والتلقائية والشاعرية ، وهذا شيء طبعي لفقيه وفيلسوف ، ومؤرخ وكاتب سيرة ، فيستحيل أن يتجرد شعره من سائر ملامح فكره وعلمه •

عاشرا : مناصرته للفقراء والضعفاء :

على الرغم من الغنى والثراء الذي عاش فيه إلا أنه كان في خدمة الفقراء والمعدمين ، ولعلك تذكر من الفصل الأول مناصرته للرفيق والنساء •

فلقد اعترف بحقوق كاملة للارقاء أهملها بعض الفقهاء •• كما أفتى بجواز تولى المرأة جميع الوظائف والمهام عدا الامارة والرياسة^(١) •

(١) قرب عام ١٩١٠ طبع على افندى الخطاب بمدينة الاسكندرية كتابا بعنوان « فلسفة الاخلاق لابن حزم الاندلسي ، وتليها كلمات قاسم امين بك » وفي مقدمة هذا الكتاب حاول صاحبه تدعيم وجهة نظر قاسم امين بفتاوى ابن حزم . وكانت هذه لفظة ذكية ، ومحاولة لتدعيم وجهة نظر قاسم امين بوجهة نظر فقيه قديم •

كما أفتى بعدم جواز إيجار الأرض الزراعية واشترط فيها المشاركة أو المزارعة ، وكانت وجهة نظره مبنية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤجر أرض خيبر حين فتحها الله عليه ، وإنما تركها مزارعة بالنصف لزراعتها من يهود خيبر •

وعندما كان الفقهاء والأمرء يضيقون عليه في هذه النقطة كان يستشهد بظاهر القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وإلى رأى أمام أهل مصر الإمام الليث بن سعد •

فقبل ابن حزم بما يقرب من قرنين أفتى الإمام الليث بذلك ، وانتفع بضياعه الكثيرة بطريق المزارعة ، بل كان يوزع نصيبه على الفقراء والمساكين وذوى القربى وطلاب العلم •

حادى عشر : دعوته للتكامل بين العلوم :

عندما صنف ابن حزم العلوم سبعة أقسام :

علم الشريعة ، واللغة ، والخبار ، والنجوم ، والعدد ، والطب ، والفلسفة أكد مرارا أنها تتكامل مع بعضها ولا يستغنى منها علم عن غيره فهي جميعا تسعى إلى سعادة المسلم في دنياه ، وفوزه بالجنة في أخراه •

أما الذى يغلق الباب على الثقافات الأخرى فهو بمنزله من ليس في يده من الطعام إلا الملح ، ويظن أنه ليس هناك أفضل منه •

والذى يمنع العلوم ويحرمها بحكم أن السلف الصالح لم يبحث فيها ، فإن ابن حزم يرد عليه بقوله أن السلف الصالح لم يتحدثوا في مسائل النحو ، لكن لما فشل الجهل بين الناس ، وضع العلماء كتب النحو •

وهكذا فالضرورات تحتم متابعة العلوم متكاملة متناسقة بدون حجب أو منع لأنها من بلدان اليونان ، أو من عند حملة الصليبان •

أما إذا ثبت أن هذا العلم ليس جالبا للنفع ولا يعرف الانسان
ببديع خلق الله سبحانه وتعالى فيجب انكاره من ذلك علم أحكام
النجوم الذى يتمسح به العامة يتعلقون بتنبؤاته ، ويتكلمون على
توقعاته فى حين أن لا أساس له فى الدين أو العقل •

ولابن حزم اعتراض وجيه على علم أحكام النجوم لأن كل
قواعده مبنية على المصادفة والاتفاق وليست من البرهان العقلى
فى شىء ، ولا من التجارب فى شىء لأن التجربة تقتضى تكرار الحال
مرارا وتكون النتيجة واحدة •

وهكذا بفكر اسلامى ومنهج ظاهرى أنكر ابن حزم علم أحكام
العلوم ودعا الى تكامل العلوم •

ثانى عشر : دعوته لنشر العلم وتبسيطه :

تبنى ابن حزم — كسائر الفقهاء — الدعوة لتوصيل العلم ونشره
للخاص والدانى ، والقاصد والراغب •

وزاد ابن حزم على ذلك أنه ألف كتباً ورسائل لتبسيط المنطق
وتقديمه للناس بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية •

فاذا كان العقل أساساً للتمييز والحكم ، وإذا كانت مباحث
أرسطو فى المنطق مفيدة لسائر العلوم فلا بد من تبسيط المنطق وتيسيره
بدون مصطلحات معقدة ، وتركيبات فنية •

وهنا نلتقى الظاهرية مع الرغبة فى خدمة الناس بتبسيط العلم
وفتح باب الاجتهاد •

فاذا كان القياس مرغوضاً والتقليد ممنوعاً فلا بد من تدريب الناس
على استنباط الأحكام واستخراج النتائج بدون حواجز فكرية أو عرقية •

لذلك دعا ابن حزم الى ضرورة تعليم النساء والرقيق ، وتيسير
العلم للصغير والكبير • ولذلك طالب الأغنياء بتقديم الهبات والعطايا
لتيسير المشقة وتسهيل المهمة •

وموقف ابن حزم من العلم وضرورة تيسيره شبيه بموقف البروتستانتية عند بداية نشأتها •

فكلاهما كان يواجه قيودا وتحديات ، وكلاهما كان يطالب بتحرير العقل من التسلط والتحكم ، التقليد والاتباع لذلك كان نشر التعليم وتبسيط العلم سلاحا في يد كل منهما لمواجهة الظلم والظلام •

ولعله وضع من خلال النقاط السابقة مدى الاتساق والترابط عند ابن حزم :

فالاحتكام الى العقل ، ومنع التقليد ، والأخذ بظاهر النص يحتاج الى انتقان للقراءة والكتابة ، والفهم والتحليل لأن خاصة المسلمين وعامتهم لن يعتمدوا على امام معصوم أو مذهب موروث ، من هنا لا بد من اذاعة العلم ونشره بين الناس •

وكان ابن حزم بذلك ثمرة لمنهجه الظاهري من جهة ، ومجتمعه الأندلسي من جهة ثانية ، وهذا ما سبق تأكيده في الفصل الأول من الترام وتفاعل بين ابن حزم وأندلسه •

فلقد كانت ينابيع العلم تنبجس بين ربوع الأندلس تروى الفاتحين والمسالمية ، والمولدين والمستعربين ، والسمر والشقر ، وأهل الحضر والدر ، والعرب والبربر ، والأحرار والعبيد ، واليهود والنصارى بدون تفرقة أو تمييز •

من هنا كان ابن حزم فرعاً من دوحة سامقة تنشر العلم والمعرفة حيث امتدت غصونها في حين كانت أوروبا تكتنفها ظلمة ظلماء ، وسحابة دكناء ومنابع علمها مطمورة ، ومعاهد تعليمها مقصورة على الرهبان والاحبار • وبينما أهل قرطبة يغتسلون في تسعمائة حمام عام في القرن الثاني عشر الميلادي خاض طبيب مجرى سنة ١٨٤٧ معارك هائلة ليجبر زملاءه أطباء المجر على غسل أيديهم قبل اجراء الولادات !! وفي حين كانت مكتبة الحكم الثاني تزدحم بـ ٤٠٠٠ ٤٠٠ مجلد كانت الأمية متفشية في ربوع أوروبا تخنق الحاكم والمحكوم •

ثالث عشر : الوظيفة في التعليم :

إذا كانت الظاهرية واضحة جلية فإن للوظيفية قسما وملامح ،
لذلك كان ابن حزم واضحا عندما طالب في منهجه التعليمي بتعلم النحو
بالقدر الصالح للمخاطبة والقراءة •

وتتجلى الوظيفية مرة ثانية في تعلم الكتابة ، ولهذا فالمبالغة في
تحسين الخط والعناية به تزيد لا مبرر له ، بل ربما يجعل الشخص
مشهورا بحسن الخط فيوقعه سوء الحظ في سلطان جائري يجعله كاتبه
ومسود رسائله للامصار فيقضى عمره في تسويد قراطيس تأمر بالظلم
وتبعد عن الحق •

وتظهر الوظيفية للمرة الثالثة في تعلم الحساب والهندسة ، والهيئة
والمساحة فالتعلم يدرسها من أجل المعرفة ، وفهم صنعة الباري ،
وتحقيق المنفعة •

فجلب المياه ، ورفع الأثقال ، وإقامة المباني ، وتشبيد الجسور
كل ذلك مبنى على دراسة العلوم الرياضية والهندسية •
أذن نحن لا ندرس من أجل الدرس ، بل من أجل تقدير عظمة
الخالق سبحانه وتعالى ، ثم تحقيق المنفعة وطردهم •

وتتألق الوظيفية للمرة الرابعة مع دراسة التاريخ فدراسته تفيد
في معرفة أسباب ذهاب الملوك الظلمة الفجرة فيزهد الدارس في سلوكهم ،
كما يتعرف على أهل الفضائل فيرغب في الاقتداء بهم •

وهكذا في كل المعارف والعلوم الدراسة لها هدف وغاية ، وتخدم
مصلحة في الحياة الدنيا والآخرة •

ولا شك أن هذا المعنى للوظيفية يرتبط بمعالم الثقافة الإسلامية
التي تربط كل دراسة بالباري سبحانه وتعالى تحريا لبديع صنعه ،
ومتابعة لعظم قدرته والمهم أنه ربط كل ذلك بمصالح العباد وتحسين
مستوى معيشتهم •

رابع عشر : الأخلاقية في التعليم :

الوظيفية المسبق الإشارة إليها لا ينبغي أن تكون على حساب
الغاية الأخلاقية للعلم والتعليم •

لهذا عند تعليم الشعر نهى ابن حزم عن شعر الغزل ، والصعلكة
والتغرب ، والهجاء •

والتبحر في العلم لا ينبغي أن يكون بهدف التقرب من سلطان
أو الحصول على مال وجاه ، ومن فعل ذلك فقد ترك أخصر الطرق
للكسب ، وركب أوعرها وأقلها فائدة •

وحضور مجالس التعليم تقتضى سلوكا معيناً فيه ضبط للنفس
وكظم للغيط ، مع استعمال للدليل ومقارعة بالحجة ، بموضوعية
وأمانة ، وبحضور الراغب في العلم وليس الكاره له أو الباحث عن
الغرائب والشنائع •

والمعلم عليه أن يمارس دوره بدون غلظة أو تشدد لا مبرر لهما ،
وبدون غش أو تمويه ، مع رغبة في الاستزادة والتوسع العلمى ،
والكفاف والرضى المادى بعيدا عن السلطان بذهبه وسيفه الذى يكتم
أفواه العلماء ويغضى عيونهم •

كانت الملامح السابقة أهم ملامح فكر ابن حزم يجمعها منهج
ظاهرى واحد حكم الرجل فكرا وسلوكا ، وفقا وتفسيرا ، وتاريخا
وسيرة ، وفلسفة وكلاما ، وأدبا وتربية • وما كان عليه من منهج
ظاهرى وولاء أموى أورثه المشاكل والأزمات ، وما فت ذلك في عضده
ولا زاغه عن فكره فصدق عليه قوله :

فان يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل ان أنزل ويدفن فى قببرى

المراجع

- ١ — ابراهيم محمد ابراهيم حريبة ، ابن حزم والقيمة العلمية لنقده لليهودية والنصرانية ، رسالة دكتوراه ، كلية اصول الدين ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٢ .
- ٢ — ابن يسلم ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٣ — ابن حزم ، التقريب لحد المنطق والمداخل اليه بالالفاظ العسامة والامثلة الفقهية ، بيروت .
- ٤ — ابن حزم ، الأحكام في اصول الاحكام ، الجزء الأول والخامس والسابع .
- ٥ — ابن حزم ، الاخلاق والسير في مداواة النفوس ، تحقيق وتقديم وتعليق الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .
- ٦ — ابن حزم ، الفصل في الملل والاهواء والنحل ، الجزء الثالث ، بيروت .
- ٧ — ابن حزم ، المحلى ، الجزء الأول والثامن ، مكتبة الجمهورية العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٨ — ابن حزم ، رسائل ابن حزم الاندلسى ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة الخانجى ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٩ — ابن حزم ، طوق الحمامة ، حققه وقدم له فاروق سعد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ١٠ — ابن حزم ، ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، تحقيق سعيد الانغانى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ١١ — ابن خلدون ، المقدمة ، الطبعة الخامسة ، دار الكتاب العربى ، بيروت .

- ١٢ — أبو عبد الرحمن بن عقيل ، نظرات لاهثة ، مطابع الشهرى ، الرياض ، ١٩٧٦ .
- ١٣ — احسان عباس ، تاريخ الادب الأندلسى — عصر سيادة قرطبة ، الطبعة الخامسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- ١٤ — احمد حسن كحيل ، النحو والفقه الظاهرى ، مجلة اضواء الشريعة ، كلية الشريعة ، الرياض ، العدد السادس ، ١٩٧٥ .
- ١٥ — احمد مؤاد الأهوانى ، التربية فى الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ١٦ — أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠ .
- ١٧ — الطاهر احمد مكي ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
- ١٨ — المقرئ التلمسانى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الرابع ، تحقيق فريد رفاعى ، طبعة بولاق ، القاهرة .
- ١٩ — جودت الركابى ، فى الادب الأندلسى ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، (القاهرة ، ١٩٧٢) .
- ٢٠ — جودة هلال ومحمد صبح ، قرطبة فى التاريخ الاسلامى ، المكتبة الثقافية ، العدد ٧٢ ، ١٩٦٢ .
- ٢١ — حسان محمد حسان ونادية جمال الدين . مدارس التربية فى الحضارة الاسلامية — دراسة نظرية تطبيقية . دار الفكر العربى . القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٢٢ — خديجة الحديثى ، أبو حيان النحوى ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦ .
- ٢٣ — خوليان ريبيرا ، التربية الاسلامية فى الأندلس ، اصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ترجمة الطاهر مكي . دار المعارف ، ١٩٨١ .
- ٢٤ — دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الخامس عشر ، طبعة طهران .

- ٢٥ — عبد المجيد محمود عبد المجيد ، الاتجاهات الفقهية عند اصحاب الحديث في القرن الثالث عشر ، داد الوفاء للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٩
- ٢٦ — عارف خليل ابو عيد ، الامام داود الظاهري واثره في الفقه الاسلامي ، رسالة دكتوراه ، كلية الشريعة والقانون — جامعة الأزهر ، ١٩٧٨ .
- ٢٧ — عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية ، موسوعة العقاد الاسلامية ، المجلد الخامس ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ٢٨ — عبد البديع الخولي ، الفكر التربوي في الاندلس ، رسالة ماجستير ، كلية التربية — جامعة الأزهر ، ١٩٧٨ .
- ٢٩ — عبد الحليم عويس ، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضارة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ٣٠ — عبد الرحمن الحجى ، التأريخ الاندلسى من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة ، دار القلم ، دمشق — بيروت ، ١٩٧٦ .
- ٣١ — عيد الرحمن الشرقاوى ، ائمة الفقه التسعة ، دار اقرا ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٣٢ — عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الاندلسى — حياته وادبه ، الدار العربية للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٣٣ — عبد الله بن عبد الله الزايد ، ابن حزم الاصولى ، رسالة دكتوراه ، كلية الشريعة والقانون ، جامعة الأزهر ، ١٩٧٤ .
- ٣٤ — عبد الواحد المراكشى ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٣٥ — على حسن عبد القادر ، نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامى ، القاهرة .
- ٣٦ — لطفي عبد البديع ، الاسلام في اسبانيا ، الطبعة الثانية : النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

- ٣٧ — ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة محمد صلاح الدين حلمى . القاهرة .
- ٣٨ — محمد ابو زهرة . ابن حزم . حياته وعصره — آراؤه الفقهية . دار الفكر العربى . القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٣٩ — محمد ابو زهرة ، تاريخ المذاهب الاسلامية ، الجزء الثانى فى تاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربى ، القاهرة .
- ٤٠ — محمد بن الحسين الثعالبى الفاسى ، الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى ، الجزء الثانى ، المكتبة العلمية المدينة المنورة ، ١٩٧٧ .
- ٤١ — محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم فى الاندلس ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٤٢ — محمد عبيد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، مكتبة الخانجى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٤٣ — موسى رزق ريحان ، الاندلسيون اسبق من برايل فى اختراع طريقة القراءة باللمس ، مجلة كليتى الشريعة واصول الدين بالقصيم ، المملكة العربية السعودية ، العدد الثانى ، ١٩٨٢ .
- ٤٤ — ياقوت الحموى ، معجم الادباء ، الجزء الاول .

الفهرس

الصفحة	
٥	مقدمة
١٣	الفصل الأول — ابن حزم وعصره
٢٢	— شخصيتان متفاعلتان
٣٢	— الأسرة والمولد
٣٩	— النشأة والثقافة
٥٣	— الانتاج والجهود
٥٨	— الانحسار والوفاة
	الفصل الثاني — المنهج الظاهري
٦٣	— بداية المذهب
٦٩	— اختلاف المنهج عن سائر المذاهب
٧٢	— تراجع المذهب في المشرق
٧٤	— تألق المذهب في المغرب
٨٣	— صراع السلطة والفقهاء
٨٦	— ظاهرية ابن حزم
٩٤	— المذهب بعد ابن حزم
	الفصل الثالث — ملامح فكره التربوي
١٠٣	— حرية الانسان
١٠٩	— طبيعة الانسان
١١٥	— طريقة اكتساب العلم
١٢٠	— تصنيف العلوم وضورة التكامل بينها
١٢٤	— مراتب العلوب
١٤٢	— ضرورة تبسيط العلوم
١٤٧	— ضرورة التوسع في التعليم
١٥١	— شروط التأليف الجيد
١٥٣	— فضل العلم واهله
١٥٥	— آداب مجالس العلم
١٦١	خاتمة
	المراجع

رقم الايداع ٧٢٢٠ / ٦٤

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحاني - المتاهة
تليفون: ٧٤٤٠٧٦ - ٧٤١٦٩٨

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

الطبع والنشر والتوزيع

البريد - شارع شهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى

ت ٤٢٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤